سولاریکا

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع
٢٠٢٤/٠٠٠٠

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
إعداد إدارة الشئون الفنية

مسعي، فضيلة
سولاريكا/ رواية فضيلة مسعي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٤
٢٦٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٠-٠٠٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠
مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف
ديما المصري

التدقيق اللغوي
فاضل التميمي

التنسيق والإخراج
فريق عمل الدار

رواية

سولاريكا

فضيلة مسعي

لوحة الغلاف

إهداء

الفنان التشكيلي العراقي

صبري المالكي

إهداء

إلى الخالد في قلبي أبي وحبيبي وصديق عمري أحمد الصّغير بن علي المكّي محمدي رحمه اللّه. محبّة واشتياقا إلى روحه الطّاهرة الزّكية وذكراه العطرة النّقية. إلى الملايين الذين قضوا بجائحة كوفيد19.

إليك أيّها القارئ الكريم.فلا تجعل هذا الكتاب للعرض في مكتبة بيتك أو مكتبك.تصفّحه وأكتنهه لأنّه كتب بحبر دمي.لا تجعل الغبار كساء لدمي...مع حبّي وتقديري.

فضيلة المسعي

.

بوح الكاتبة

لأنّ الكتابة ركحية بالنّسبة لي، أعيش مشاهدها وحركة الشّخوص والأحداث. تؤلمني بعض المشاهد. البعض الآخر أفرح له وأطرب، وقد أغنّي. ثم بحبر دمي أكتبه على الورق. أجمّل قبح الواقع والأحداث التي نعيش في هذه العشريّة العجفاء، بتصميم لغوي وفنيّ قد يذهلك. مراوحة بين واقع معيش وبين فانتازيا اقتضتها الحبكة الرّوائية. الواقع والخيال توأمان لا يفترقان. بهما يجنّح الكاتب ويقف على هضبة بروميثيوس ليضيء الكون. أتعلم لماذا يا صديقي ؟ لأنّ الكتابة رسالة إنسانية والإنسانية تقتضي منّا كصفوة مشاعرها وإحساسها المرهف، الملتقط لكاميرا مصوّر فوتوغرافيّ ماهر كل لقطات قبح العالم. لنعرّيه في قالب فنّي جميل غير ممجوج. هذه هي سولاريكا قصّة حبّ وواقع وخيال. ألم وحبّ وسلام.

تصدير

«الملل هو عمق الحياة والملل هو الذي اخترع اللّعب والملاهي والرّوايات والحبّ».

ميغيل دي أونامونو رواية ضباب (ص ٢٥)

الباب الأوّل

أفرغ نفسي من أسماء الآخرين.. أفرغ جيوبي
أفرغ حذائي وأتركها كلّها على قارعة الطّريق
ليلا أعيد عقارب السّاعة إلى الوراء
أفتح ألبوم العائلة لأرى نفسي صبيا(ة)...

الشّاعر الأمريكي مارك ستراند

الفصل الأوّل

فعلتها أنس...

عانقت سولافة أشجار ربيعها الهاربة. أحكمت الحضن عليها كي لا تهرب كعادتها . دعتها للنوم لعلّه يزيح عنها بعض ما تنوء به نفسها من الهمّ.

الفجر بعيد ووطأة الليّل تجثم على قلبها الحزين، مفكّرة في من رحلوا وتركوها وحيدة. جدّها الفارس والشّاعر. جدّتها المرأة الشامخة، حبيبها المثقّف العضويّ الوسيم. تأخذها موسيقى الأطلال إلى أبيها العطوف الحنون وأصدقائها الذين تركوا لها جمر الذكّرى...

همهمت قبل أن تقرأ الشّهادتين وتستسلم للنّوم بصوت مسموع يسكنه الوجع وتغلفه الدّموع:

-أين أنت نصاف لأشكوك همّي؟. رنّات صوتك الجميل لا تزال في أذني وقرقرات ضحكتك الصّافية كضحكة طفلة. تكتب نوتتها

بقلبي لتضخّه أوكسجينا يهبني حياة. بأيّ روح وأيّ شغف عشنا؟. آه من السّرطان. آه من الكوفيد. آه من الموت الذي يسرق منّا أحبابنا. هل سأجد السّكينة والعزاء يوما؟. آه مرّة أخرى وآه ثالثة ؟.

مرّة أخرى مجيبة نفسها:

- لا أظنّ. فهذا ما أرادته الأقدار .

تشرنقت بذكرى الأحبّة وخوفها ونامت. عرّجت روحها على أبيها وهو يشرب من ماء تسنيم، فقبّلته كثيرا وحمدت ربّها على المقام الذي أسكن والدها فيه. ثمّ توجّهت إلى جنّة الحسناوات اللّواتي عانين في حياتهن. فعثرت عليها جالسة على صخرة من الياقوت داخل باب الريّان. تحيط بها الخضرة الرّائعة الجمال وتضوع الرّوائح الزّكية من كلّ الاتجاهات.. خاطبتها بكلّ حبّ وشغف:

-من؟. نصاف؟. لا أصدّق نفسي. أهذه أنت حبيبتي؟.

- صديقتي الغالية كيف حالك؟. وكيف حال البلاد؟. اشتقت إليك نوال

- هذه أنت حقّا؟. تعبت روحي لفراقك.

-خلّصكم الله من الوباء اللّعين الذي كان سببا في موتي.

- لم أستوعب رحيلك. أرشديني كيف أرجع لحياتي العادية.

-هل أكملت سولّاريكا؟.

-لا لم أكملها ولم أكتب حرفا واحدا بعد رحيلك. كنت قارئتي الأولى التي تقرأ نصوصي قبل نشرها. فمن سيقرؤها الآن وقد رحلت؟.

-أكملي سولاريكا حبيبتي، أكمليها. ليس من حقّك الإحجام عن الكتابة، قرّاؤك ينتظرون.

-أشعر بالإحباط والحزن... الرّداءة في كلّ مكان.

-الحزن والإحباط لا ينفعان. هيّا قولي ما أخبار ياسر وسولافة؟.

- أتسألين عن ياسر وسولافة؟. الحقيقة أنّي لم أقابلهما منذ رحيلك.

- أنا متشوّقة حقّا لمعرفة مصير حبّهما المعذّب. لقد تألّمت سولافة المسكينة كثيرا .

-الحقيقة إنّني لا أعلم إن كنت سأكمل هذه الرّواية أم لا. عظامي تتكسّر من الوجع. رأسي يكاد ينفجر من الألم الفظيع. نارٌ تطبخ لحمي. أحشائي تتقطّع من المغص الشّديد. أمّا الإسهال الذي عانيت منه صباحا فالحمد لله، تخلّصت منه بفضل حبّة دياريكس.

كانـت بصيدليّـة البيـت.

-صيدليّة البيت؟. لم أفهم؟.

- صندوق خشبيّ به ثلاّجة قزم معلّقة بغرفة النّوم.

-لا تقولي ما يجول بخاطري عافاك الله؟.

-نعم للأسف وأطلب من الله اللّطف والعافية.

-أتقصدين الكورونا؟.

-نعـم هـي الكورونـا أو مـا يسـمّى بكوفيـد١٩. لقـد كان الاختبـار إيجابيـا. عـلى كلّ فلسـت أفضـل مـن ملايـين النّـاس في العـالم.

الكتابة هي الحلّ.

-حمـاك الله عزيـزتي هـذا الوبـاء الـذي وقـف الطّـب أمامـه عاجـزا وقـضى ملايـين البـشر نحبهـم بسـببه وأنـا منهـم. لقـد تغلّبـت عليـه الـدّول الغنيّـة نسـبيا. نظـرا لتفوّقهـا اللّوجسـتي والمـالي والطبّـي. لكـن الـدّول الفقـيرة ومنهـا تونـس ليـس لهـا إلّا انتظـار رحمـة إلهيـة .

- في عالمـي أيضـا تتدافـع أعـداد مهولـة مـن النّـاس عـلى باب الـبرزخ... فـإن اسـتمر الأمـر عـلى مـا هـو عليـه. فـلا أخـال الأرض سـتبقى عامـرة

بسكّانها .

-إنّ الوضع كارثي.

- لقد حلّ العديد من معارفنا المشتركين.

- من مثلا؟.

-رأيت الأستاذ عبشوق يحسب بنظرياته الرّياضية الفرق بين السّنوات بحساب البرزخ وبحسابكم على الأرض. في حين كان أستاذ الجغرافيا عبد الله بالأكحل يشاركه هندسة جغرافيا البرزخ وتجهيز خارطة ومجسّما له. يتولّى تسليمها لكلّ وافد جديد. عبد الله ولد العمّ سالم أتذكرينه؟ .

- نعم، أذكره.

-عبد الله بالأكحل جارنا... الذي درّسنا مادّتي التّاريخ والجغرافيا في السّنة الثّالثة من التّعليم الثانوي. ذلك الأسمر الخجول الذي كنّا نقول عنه موزونا بالملح. لا يتقدّم في السنّ أبدا ولا يتجرّأ الشّيب على مفرقه والتّجاعيد تخاف من ابتسامته.

- وهل رأيت عيّاد.؟

-آه... عيّادا صديقنا المقرّب الرّائع. رأيته يتسلّم من يد كلّ

وافد جديد ورقة شجرة صفراء. قيل إنهّا ورقة الأعمار التي تسقط من شجرة الحياة قبل أربعين يوما من الموت. عندما تصعد الرّوح تسلّم الملائكة الورقة لصاحبها. كانوا يسلّمونها لعيّاد فيصنع من نصف عددها مجلّدات كتب، ومن النّصف الآخر يصنع حبرا ليكتب على تلك الأسفار من ورق أعمارهم. يكتب ما خفي وما أستتر في حياتهم. كدت أنسى عالم الاجتماع منجي برطاجي. لقد رأيته أيضا. كان مهتمّا بسوسيولوجيا من قضوا في الثّورة اللّيبية ويسجّل الحقائق عن المجازر والمقابر الجماعية المجهولة .

-نصاف... حبيبتي... يا لك من رائعة، حتّى هناك تهتمّين بالثّقافة والمثقّفين. هذه لقطة من لقطاتك التي تردّدينها عندما يدهشك شيء ما. تقولين لقطة... هل نسيت؟.

-لا لم أنس. وماذا عن تونس يا صديقتي؟.

معضلة تونس في ما جرى لها بعد الثّورة. أغلب من تقلّدوا زمام الحكم لا يفكّرون إلاّ في النّهب وسرقة أموال الشّعب ومجهوده. لقد انهارت المنظومة الصحّية. لا أوكسجين ولا أسرّة إنعاش ولا مستشفيات ولا مالا لتوفير التلاقيح. الكثير من المؤسّسات بيعت وأفلست عنوة. الخيرات نهبت. البطالة استفحلت. برلمانيون

يتسابقون على الإجهاز على ما تبقّى في خزينة الدّولة. لقد صادق البرلمان على آلاف الدّولارات لفائدة أعضاء الحزب الحاكم. حسب زعمهم تعويضا عمّا عانوه وهذا مجانب للصّواب. فأغلبهم أخذ الأموال الطّائلة ثمن سكوته وقتها، وبعضهم تمتّع بتمييز في الوظائف والبعض خيّر الدّولارات التي تمطرها السّماء في دوّل اللّجوء. ليس ذلك لسواد عيونهم. إنّما ثمن خياناتهم للوطن. أهذا الوقت وقت تعويضات ؟.

-أسفي على العباد والبلاد. أيّهما أولى إنقاذ أرواح البشر؟. أم إثقال كاهل البلاد المسكينة بالقروض تعويضا لهم؟.

-لا توجعي قلبي أكثر. لنعد إلى سولافة وياسر .

-الكوفيد تقطّع أوصالي حبيبتي. أحسّ بثقل في صدري. أطلب اللّطف من الله. أتمنّى حقّا أن أشفى لأكمل رواية سولافة وياسر. حماهما الله من هذا الوباء. الحزن استوطن الوجوه. النّاس يمشون في الشّوارع في تيه، وعلى غير هدى. أعانهم الله على ما هم عليه. بطالة وجوع وغلاء ودعما يرفع ووباء وغياب للدّواء والأوكسجين وأسرّة الإنعاش والتلاقيح. صفّارات سيّارات دفن الموتى لا تكد تصمت. لولا شقيقتنا الجزائر بلد المليون والنّصف شهيد لمتنا جميعا. هذا ليس

بغريب عنها وعن رجالها الصّناديد. بورك فيها وفي رجالها.

-تاريخ كبير ومجيد ربط بين البلدين. أنسيت أنّ الدّماء التّونسية والجزائرية امتزجت في معارك التّحرير وسالت على نفس الأرض.

-الدّم العربيّ الحقيقيّ ليس بماء. هذا ما تقوله الجزائر التي أعطت درسا في الأخوّة.

-أطلبي من الله أن أشفى كي أكمل سولاريكا وأعطي الجزائر ما لها من حقّ علي بصفتي مثقّفة. فالجزائر في قلبي. أتمنّى أن ينتهي هذا الوباء سريعا كي أزورها وهي العظيمة بناسها وتاريخها ومواقفها التي لا تنس.

-شفاك الله وشفى تونس من وباء كورونا ووباء السّياسة الفاسدة العاصف بالخضراء الجميلة.

-أووه... وريريبي وريرييبي.

-هل أصاب عقلك مسّ من الكورونا؟. أتزغردين؟.

-ألم تستمعي إلى المذيع في الرّاديو؟.

-ماذا قال:

– وريريبي وريريبي الحمد لله مثنى وثلاثا.

–ليس لسانك فقط الذي يزغرد. عيناك أيضا تزغردان. خبّريني ماذا قال ليجعلك تزغردين ؟. هل رحل الفاسدون عن الحكم أم ماذا؟.

–فعلتها أنس مرّة أخرى. بورك الرّحم الذي تحرّكت فيه. أنس بنت تونس واحدة من شباب تونس. واحدة من حرائر تونس. أنس جابر بطلة التّنس الشّهيرة تزرع الفرح في كلّ البيوت العربية برغم الزّمن الكوروني المقيت الذي يحصد آلاف الأرواح.

–تونس ثروتها أولادها، هي ثروة لا تقدّر بثمن، مع إنّها لا تخلو من ثروات طبيعية. كان يمكن أن تجعلها من أغني دوّل العالم وليس دولة مفلسة ينخرها الوباء بنسب عالمية مفزعة.

صوت من بعيد:

–وريريبي وريريبي زريريبي.

–هاهي الخالة فاطمة بنت الطّاهر أيضا تزغرد. هل هي أيضا مهتمّة برياضة التّنس وأبهرها فوز أنس جابر؟.

–لا أعلم، انتظري هاهي تقترب، سأسألها.

-مرحبا خالة فاطمة، أراك لا تلبسي الكمامة وتزغردين، ما الأمر؟.

-حفيدي نجح بامتياز في امتحان الباكالوريا... الحمد لله. .. وريري وريري...

-ألف مبارك خالة فاطمة، ألف مبارك لتونس شبابها.

-هل قلت شبابها يا ابنتي ؟. أين شبابها ؟ المهمّش هنا ؟. أم الذي أكله البحر؟. أو ذاك الذي استقطب ولقّن أبجديات الإرهاب وسفّر إلى بؤر التوتّر؟. ألم تسمعي بهجرة الأدمغة التي لا تتوقّف. آخرها تلك الأعداد المهولة من الأطّباء؟. أنا أعبّر عن فرحتي الآنية بنجاح حفيدي. لكنّي خائفة عليه من مصير محبط. المصير الذي تجرّع مرارته قرابة مليون صاحب شهادة عليا معطّل عن العمل. لا تجعليني أحزن. دعيني أغتنم الفرصة لأفرح قليلا. ما أحوجنا إلى الفرح... إلى اللّقاء . وريرييي وريريي..

-إلى اللّقاء خالة فاطمة. أنا أيضا. وريري أنس وريريي شباب تونس.

ذهبت خالة فاطمة. ابتسمت نصاف بحبّ لصديقتها وهي تربّت كتفها. ما أجمل أحلامك التي استقدمتني من البرزخ لألقاك. افعليها

دائـما. أشـتاق إليـك حبيبتـي. سـأذهب الآن. الحلـم أشرف عـلى النّهايـة. إلى اللّقـاء حبيبتـي. أكمـلي سـولاريكا وأكتبـي كلّـما اسـتطعت.

-رحمـك الله نصـاف حبيبـة قلبـي. من أجـل ذكراك سـأكملها وسـأكتب إلى آخـر يـوم في حيـاتي. أسـعدتني رؤيتـك مـرّة أخـرى. كان حلـما جميـلا عـودي إليّ دائـما نصـاف. لا تقاطعـي أحلامـي أنـا بحاجـة إليـك حبيبتـي .

أذّن الدّيـك فقامـت إلى المغسـل. اسـتحمّت وتوضّـأت وأدّت بخشـوع صـلاة الفجـر. ثـمّ توجّهـت إلى المطبـخ. تناولـت فطـيرة محشـوّة بجبـن الريكوتـا وعلبـة يوغـورت طبيعـي ممزوجـة بالعسـل مـع بعـض شرائـح الخيـار والطّماطـم. ثـمّ جلسـت إلى مكتبهـا وانكبّـت عـلى كرّاسـها. ربّـما عـلى روايـة سـولاريكا.

الفصل الثّاني

مدينة البعوض

-أووف محمـود... مـا هـذا ؟. أصـوات البعـوض فظيعـة هنـا. سأسـمّي هـذه المدينـة مدينـة البعـوض. منـذ دخلتهـا وأنـا أحـكّ جلـدي كأجـرب. لا أنـام مـن ألم لسـعاته. البعـوض كبـير وجـريء كطائـرات الخفّـاش التـي تـدكّ مبانينـا التّاريخيـة الضّخمـة هنـاك.

- دعـك مـن البعـوض. سـتتعود عليـه ويكـفّ جلـدك عـن الحساسـية مـن لسـعاته يـا ابـن العـراق.

-مثلما تعوّدنا هناك طائرات الخفّاش؟.

-نعم هذا ما سيحصل.

-وهل تعوّدت أنت؟.

-لي عـشر سـنوات في هـذه المدينـة منـذ فارقـت سـورية. جلـدي تعـوّد

لسعاته وطنينه... هه رائع.

-ما الرائع ؟... البعوض؟.

-هههه لم أقصد. أنظر إلى يمينك ياسر. كم هي جميلة ومغرية واجهة المكتبة وطريقة عرضها للكتب.

- أأنت مجنون أيّها الدّمشقيّ؟. هذه الأشياء تجاوزها الزّمن، صارت من الماضي، هي تحف للعرض لا غير.

-أووه... سولاريكا... أخيرا عثرت عليها. منذ عدّة أشهر أبحث عنها. أخيرا... شكرا لك أيّتها الأقدار الجميلة... إنّه يوم حظّي.

-هههههه... أووه.. سولاريكا.. ههه أخيرا... يوم حظّي... هههههه... شكرا للأقدار.

-بالفعل أنت مجنون. أو أنّ العصر قد تجاوزك. هل عثرت على كنز؟.

-هذا الكتاب أبحث عنه منذ عدّة أشهر ولم أجده. كدت أفقد الأمل. حدّثتني عنه صديقة روسية. أغرتني بضرورة البحث عنه وقراءته. كنت سأستعيره منها لكن أحجمت عن ذلك. الغربيون لا

يفرّطـون في الكتـب. هـي كأولادهـم يحافظـون عليهـا جـدّا. ويتوارثنهـا مـن جيـل لجيـل مـع تنميتهـا وإثرائهـا.

-مـع تنميتهـا وإثرائهـا؟. كأنّـك تتحـدّث عـن الانتقـال الدّيمقراطـي بعـد مـا يسـمى بالرّبيـع العـربيّ. هـذه الأسـطوانة المشـجوجة التـي تـدور عـلى ألسـنة حكّامنـا. يقنعوننـا بأنّهـم يسـتوردون الدّيمقراطيـة مـع تنميتهـا وإثرائهـا بكفاءاتهـم السّياسـية النّـادرة. يزعمـون تشـبّعهم بمبـادئ حقـوق الإنسـان منـذ نعومـة أظافرهـم. هههههـ... إنّـه عالمنـا العـربيّ الطّريـف.

-يـا أخـي نحـن نتشـدّق فقـط. زعـماء خطـب ولغـو. حتّـى أولائـك الذيـن يحتجّـون ويغلقـون الشّـوارع لا يفقهـون لمـاذا يفعلـون ذلـك. هـم مجـرّد بيـادق يحرّكونهـا. يتظاهـرون ويصيحـون ويخلقـون الفـوضى ويغلقـون الشّـوارع وأماكـن الإنتـاج فقـد ليتغيبـوا عـن العمـل ويهجـروا المـدارس والجامعـات. يمارسـون السّياسـة ولا يفقهونهـا. يطالبـون بتغيـير الحـكّام وليـس لديهـم البديـل الأنجـع. هـه... أمريـكا وغيرهـا مـن الـدّول الغربيّـة هـم مريـدو مـا يجـب أن نكـون عليـه وليـس لأغلـب حكّامنـا سـلطة. في الضفّـة الأخـرى يخطّطـون، يهندسـون وهنـا ينفّـذون الأجنـدات.. أتعلـم لمـاذا؟.

-لماذا؟.

-لأنّ الشعب العربي شعب لا يقرأ... الكتب مجرد تحف فنّية جميلة في مجالسهم. يحرصون أن تكون أغلفتها جميلة وفاخرة ومتنوّعة الألوان. نحن شعب لا يقرأ. على العكس هنا، القراءة كالغذاء اليوميّ. لابدّ من وجبة أو اثنين منها يوميّا مهما كانت الظّروف، ولو في الفجر إن كثرت الالتزامات لكن إهمالها مستحيل.

-وهل أنت ضدّ الاحتجاجات الشّعبية على الظّلم والاستبداد؟.

-على العكس تماما لكن ضدّ البيادق التي تحرّكها الأجندات الاستعمارية. الرّبيع لا يأتي غازيا على دبّابة يا صديقي والانتقال الدّيمقراطي لا تكتب بنود دستوره وفصوله وراء البحار.

-فعلا هذا ما يحصل. لنرجع إلى كتابك. لفت انتباهي عنوانه المركّب والغريب. أظنّك قد دفعت في سبيل اقتنائه عشرات الدّولارات التي تكفي عائلة عربيّة شهرا بعد تقهقر العملات هناك. عنوان أراه يقول دفعة على الحساب قبل أن نقرأ الكتاب. إدغام بين اسمي سولافة وأمريكا.

-تقصد صدر سولافة وعجز أمريكا؟... يا له من عنوان... فعلا عتبة نصيّة تضرب على الوتر الحسّاس.

- المزاوجة بين الفانطازيا والواقع. معرفة النّص بما يدور حوله. حضور السيّاسة في طبق فنّي. اللّغة المكثّفة المدغدغة للخيال. اسمع ما سأقرأ من مدخل الرّواية.

-لا. لا... لا أريد. اقرأ قراءة صامتة. أكره الكتب.

-قلت استمع... إن لم تفعل لن آخذك إلى المطعم الفاخر الذي وعدتك به.

-سأستمع. هههه... سأستمع. لا تفعل بي ذلك.

ممازحا:

-رأفة بك سأقرأ فقرة قصيرة فقط. إحم... إحم...

تتنحنح ليكون صوته صافيا.

-هل ستدخل بيت حريم؟. أنت ستقرأ... هيّا افعل على عجل... الجوع يكاد يفتك بي.

-أحاول أن أسرّح حنجرتي. من غضبي أحسّ بأنّ شيئا يغلق عليّ منافذ صوتي.

-هل قلت ما يغضبك؟.

-وهل هنالك أكثر من رفضك للكتب والسّخرية ممّن يقرأها؟
إحم... إحم... الآن أفضل. هيّا ركّز. استمع:

يرقص القمر في عينيها الواسعتين السّاحرتين المكحّلتين، محدثا نغمة حزينة كئيبة تتوغّل في باطن أوتار روحها. يطفو لهاث أنفاسها على قلقها. تراقب من بلّور نافذة غرفة نومها دخان سيجارتها المتوحّش. كيف يغمر شعرها الكستانيّ، المجعّد، المشاكس لكتفيها الرّخاميين وعنقها الورديّ الطّويل. على خلاف البنات اليزيديّات ذوات الشّعور المسترسلة الجميلة. بشرتها بيضاء مشوبة بحمرة، رشيقة القد، نحيفة الخصر، تشعّ في الليّل كماسة متلألئة.

في إحدى ناطحات السّحاب وفي بيتها المعلّق بين الأرض والسّماء. المرقّم بعشرة فوق المائة. لا أحد يدرك تمزّقات مشاعرها الموشومة بالشّوك والمسامير. هي الفتاة اليزيدية الضّائعة في صرّة نيويورك. مغناطيس يسحب ذاكرتها بقوّة عنيفة إلى مراتع صغرها. إلى بعشيقة ولالش وضريح عدي بن سافر في شمال الموصل. تحت قدميها تسحبها الأرض عميقا. ثمّة قوّة تقبض على رأسها من عنقها إلى أعلى لترقص رقصة الطّائر الجريح مع قمر ليلتها تلك. هل هي هنا أم هناك؟. في نيويورك الصّاخبة أم في بعشيقة الهادئة ؟.

في غفلة منها تحملها ذاكرتها إلى هناك. إلى وطنها العراق ومسقط رأسها بعشيقة. حبّة القلب المرصوفة بالعطر وزهور شقائق النّعمان. كانت تعشق المشي حافية القدمين وسط الأشجار الكثيفة في وادي الصّمت أو ما يعرف بوادي لالش. كانت تستعذب رطوبة الطّين تحت قدميها. تستعذب برودته وتخضيبه لكعبيها وبين أصابعها . وهي التي ولدت بستّ أصابع في قدميها وليس بخمسة كسائر البشر.

تبتسم سولافة وهي تتخيّل فرحة الأطفال هناك وهم يتزاحمون في هرجهم ومرجهم. ليأخذوا منها البيض المسلوق الملوّن. ثمّ يجرون إلى بركة ناصر الدّين ليغتسلوا وهم يضحكون.

يعترض طريق ذاكرتها طاووس وهو يرغي ويزبد في وجه جنرال أمريكي»«كنت حاضرا عندما كان آدم يعيش في الجنّة وكذلك عندما ألقى النّمرود إبراهيم في النّار وكنت حاضرا عندما قال لي الله أنت الحاكم وأنت إله الأرض».

يذبل ليل نيويورك في عينيها. يشتدّ توحّش الذاّكرة وهيجانها. تتدافع أصوات النّسوة والفتيات اليزيديات مبحوحة. متضرّعة إلى صمّامي أذنيها. يزحف الألم ناعما إلى حلقها. تفرّ الدّموع من عينيها وهي تطير مع الذّكرى المهيمنة بثقلها بعيدا عن سماء نيويورك. إلى

هنـاك. تتذكّـر كلّ شيء. تتذكّـر سـولافة أيّـام وليـالي بعشـيقة ولالـش وتتذكّـر صديقاتهـا ونسـة وميـان وأفـين ورنديـن وعيشـان وجدّتهـا ودحـي بلباسـها الأبيـض الشـفّاف الملائكـي. لباسـها فسـتان وسروال وكوفيـة بلفحـات أنيقـة جميلـة. لـو كان بالإمـكان أن تكـون هنـاك. لـو بإمكانهـا إرجـاع تلـك الأيّـام الخـوالي. اقتنـاص تلـك اللّحظـات الهاربـة مـن مـزق السّـنين. آه مـن السّـنين التـي تعـوي كذئـاب جائعـة داخلهـا. آه مـن الظّنـون التـي ترتـاد هواجسـها. مـن الأشـواك التـي تـزرع في مسـام جلدهـا. مـن تلـك الـبروق التـي تقصـف عنيفـا رأسـها فتقسـمه نصفـين.

اليـوم يتّسـع المحيـط ويشـتدّ عمقـا في عينيهـا وهـي تنظـر في الأفـق البعيـد مطـاردة غيمـة مسـافرة إلى وطنهـا. تحمّلهـا سـلاما إلى رقعتـه الممزّقـة. إلى طيـوره المهاجـرة، إلى مراتـع طفولتهـا بعشـيقة.

هـي الآن متخمـة بالآهـات، بالقلـق والجـراح. تقـف عـلى بسـاط طائـر خيوطـه مـن نسـيج الضّيـاع والتّشرذم. في مجتمـع فسيفسـائيّ مفتّـت تحكمـه الطّبقيـة المفرطـة. يحكمـه الـدّولار والسّـلاح.

في تجاويـف ذاكرتهـا تمـرّ غريبـة بممـرّات لا تعرفهـا إلاّ هـي. ممـرّات تذكّرهـا بصديقاتهـا اللّـواتي تفتقدهـن جميعـا وهـي تقبـع وحيـدة في إحـدى شـقق ناطحـات سـحاب أشرس عواصـم العـالم. سـيف الغربـة والاغتراب

يدقّان معا بعنف مؤخّرة رقبتها. لا تخال نفسها ستعيش كثيرا. تتخيّل دماءها مثخنة أمامها كلّ دقيقة.

هنا لا أصدقاء غير الصّمت وأربعة جدران تؤويها وشوارع تمتصّ رحيق أيّامها. تعلّمت أن تقصّ لأرصفة المدينة وللأشجار التي تنتصب على ضفاف شوارعها الفسيحة حكايات الأمس الجميل. الذي لم تتركه الحرب الجائرة، الظّالمة جميلا. شوّهت كلّ فاتن وجميل وحيّ ومتفرد. هيّأت للورد والأقحوان والنّرجس جنائز في قوارير صنعت من شفيف دموع العذارى ونحيب الثّكالى والأطفال والعجائز الغافيات بانتظار ملح الزّاد.

هنا... في نيويورك فرض عليها أن تقطع كلّ أوردة الحلم بالعودة. كلّ شريان صغير يصلها بعراقها الذي كان عظيما. الآن لا تصلها منه إلاّ الصورة التي يريدون أن تصل. الصورة التي يظهر فيها العراق أشلاء في أشداق الذّئاب.

يشتدّ الأزيز فوق أسطح ناطحة السّحاب التي تسكنها. إنّه أزيز طائرة خفّاش حربية تمرّ فوق رأسها.. ذاهبة إلى هناك، إلى غزة العزة في مهمة معاضدة الصهيونية على الإبادة الجماعية لشعب سلبت منه أرضه غصبا تحت إمرة العديد من دول العالم وعدة هيئات ومنظّمات و جمعيات. لا مجلس الأمن له كلمة ولا منظمة الأمم المتحجة و على

العالم أن يعيد النظر في فاعلية وجود هذه الهيئات والمنظّمات.

ربّما الطائرة الخفاش ذاهبة لتجهز على من تبقّى من الأهل والأحلام. على الأرض بما عليها من حضارة ومبان وأشجار وحيوان. لعلّها ذاهبة في مهمّة محو آخر سطر من تاريخ فلسطين.

تدندن بقصيدة للشّاعر المصريّ مؤمن سمير. قرأتها بمجلّة رسائل الشّعر وحفظتها عن ظهر قلب. لأنّها أحسّت في حروفها لوعة وصدقا وتعبيرا فائضا عن معاناة من يعيشون حربا غير عادلة في العدّة والعتاد. حرب تدكّهم في عقر ديارهم وتتفنّن في طرق إبادتهم. ردّدت الأبيات والدّموع تسحّ سخية من عينيها الواسعتين الجميلتين المكحلتين بالجمر والتحدّي:

«وأنا في غرفتي البعيدةِ

أسمعُ صوتَ الطّائرةِ

فأدعوها للدّخولِ..

الدَوْرُ عليَّ اليوم، فدُكّيني يا أختُ،

لا أريدُكِ بهذا التّعالي،

تُلقينَ عليَّ عبيركِ، المشتعلِ،

دون حتى أن تَشمِّي، رعشةَ العَظْمةِ الأخيرةِ،

ثم تعتبرينني مثل غيري، كأنّني لستُ، صاحبَ الغدِ والأمسِ،

والوجهَ العجوزَ

الطّفلَ،

الفنّان..

لا ينفع يا سِتَّنَا..

أدخلي بهدوءٍ، دقّقي في ملامحي، التي ستصير عجيناً رائقاً،

ينفعُ لرتقِ شجرةٍ جريحةٍ،

وداعبيني بضربةِ إصبعٍ،

ينفذُ بنعومةٍ من القفصِ، الصّدريِّ،

كأنّه رشقةُ ضوءٍ..

أو حتى بنكاتٍ قديمة،

معتّقةٍ

اعتبرينا أخوةً، ولا تستأذني،

مُدِّي يديكِ إلى كَوْمَةِ، اللّحمِ على المنضدةِ، وأعيدي تركيبَ أعضائي..
كلُّ مرةٍ، على هيئةِ كائنٍ جديد..

اسمحي لنفسكِ، أن تربي ذكرياتٍ
من لحمٍ ودمٍ
أقصدُ
من
نورٍ
ونار»

صلّت لأولئك الذّين ستقتلهم الطّائرة الخفاش المتحمّسة لحصد أرواحهم وتمنّت لأرواحهم الزكية الطمأنينة والسّلام الأبديين، ذارفة دمعا حارّا لأطفال سيقضون في إحدى غاراتها.

صلّت لعجائز وشيوخ خذلتهم أرجلهم عن الفرار والرّحيل. متمنية لتلك الطّائرة الماكرة بمخطّطات من أشعلوا الحرب أن تسقط في عمق المحيط ولا تصل إلى هناك.

هي في حال لا تحسد عليها. غريبة هائمة في هواجسها وظنونها. متنزّهة في أحزانها ليلا نهارا. تحاول إعادة تعبيد طريقها إلى الحياة الكريمة ببحثها عن دواء لجميع كروبها. هي من عاشت ويلات

الحـرب عـلى العـراق لا تتمناهـا تتواصـل في غـزة والضفّـة وسـورية.

أمـس رأت مشـهدا لـن تنسـه أبـدا: شـاهدت بالتليفزيـون طفـل الثلاث سـنوات في مخيّـم جباليـا بشـمال غـزة يطعـم أختـه الرّضيعـة ويحملهـا بصعوبـة مترنّحـا بهـا. وعندمـا سـأله الصّحفـي لمـاذا تحمـل أختـك وأنـت صغـير أجابـه بتلعثـم:

– أمّـي استشـهدت. أبي استشـهد. أنـا وأختـي وحدنـا. مـا وجـدت حليبـا. أعطهـا خبـزا ناشـفا أغمسـه بالمـاء.

–يـاسر... سـأتوقّف عـن القـراءة هنـا، ولأنّـك اسـتمعت باهتـمام إلى مقطـع روايـة سـولاريكا سـأدعوك لمائـدة شـواء شـهيّة.

–لا لا... لا أريد شواء. أكمل القراءة.

سـبحان مغـيّر الأحـوال. مـا الـذي حـدث؟ منـذ دقائـق كنـت أترجّـاك أن تسـتمع إلى مـا سـأقرأ وكنـت تسـخر منـي. الآن تـردّ دعـوتي إلى وجبـة شـواء وأنـت اللاّحـم... هـذا أمـر لا يصـدّق.

–لغة الرّواية ومدخلها أغرياني. ماذا أفعل؟.

بشيء من الانتصار:

–آه... انتظر. أنظر إلي. لغة الرّواية ومدخلها أم:

«أحــبّ مــن الأســماء مــا وافــق اســمها وأشــبهه أو مــا كان منــه مدانيــا»؟.

انفرطت مسبحة مشاعره في غفلة منه:

-الاثنين.

-إذا ما فكّرت به صحيحا؟.

-نعم... معك حقّ.

-كـن صريحـا. ليسـت اللّغـة. ليـس المدخـل. إنّـما تـرى الرّوايـة خيطـا يقـودك إلى حبيبتـك التـي تبحـث عنهـا.

-هـي مـن بعشـيقة. مـن هنـاك. مـن العـراق. حتـىّ اسـم البطلـة نفسـه. هـل هـذا مجـرّد مصادفـة؟. لا أعتقـد. لكـن سـولافة لا تكتـب.

-يا أخي كيف تعرف الكاتبة التّونسية سولافتك هذه؟.

-فعـلا. لكـن أعـود وأقـول سـولافة بطلـة الرّوايـة هـي سـولافتي التـي أبحـث عنهـا.

-هههه تريدني أن أعيرك الكتاب.

-نعم... والآن.

-لـن أعـيرك إيّـاه. سـأفعل مثـل الكثيريـن هنـا. ليـس قبـل أن أكمـل قراءتـه. وليـس بصـوت عـال. إنـّما في خلـوتي وأمامـي قهـوتي العربيّـة المنكّهـة التـي سـأصنعها بنفـسي. أمّـا أنـت فستشـتري نسـخة ثانيـة مـن الكتـاب الآن. نحـن لازلنـا أمـام واجهـة المكتبـة لم نبتعـد إلاّ بضـع خطـوات.

-حسنا أمري لله. لكن لم أعهدك بخيلا ليعزّ عليك كتابا؟.

-نعـم أدعـوك إلى وجبـة شـواء في مطعـم فاخـر وأبخـل عليـك بكتـاب. عنـوة أفعـل هـذا حتّـى تتعـوّد شراء الكتـب وقراءتهـا.

وهو يضع الكتاب في حقيبة ظهر:

-إذا عجّـل إلى وجبـة الشّـواء قبـل أن تبـدّل رأيـك. سـتكون أشـهى وجبـة لأنّهـا عـلى نفقتـك. سـأتناولها بنهـم.

-هههههههه هيّا ياسر... افتقدت كثيرا طرافتك.

الفصل الثّالث

صرّة نيويورك

أسرجت أشلاء الذّكريات الممزّقة. انطلقت بها جامحة بالرغم من نزفها. لم تراع قلّة حيلتها ورمتها في كثيب ثقاب يستنفر همومها تتناسل في جيوب ذاكرتها، وخارج حدود الرّوح المبعثرة. الماطرة بالوجع وبعبارات نارية قاتلة. عيارات صديقة تطلقها عليها دون رحمة. بلا هوادة ودون توقّف فتفتك بها. تطفو فوق ماء روحها. تسبح كدمية بلاستيكية متحرّكة في صرّة نيويورك. ترقرقت الدّموع في عينيها الواسعتين. تنهّدت بأسى وإعياء كبيرين. تكلّمت مخاطبة غيمة بدت لها مضطربة وقلقة مثلها وكأنّها قد تماهت معها. فصارت الغيمة هي سولافة وسولافة هي الغيمة. كم كانت مؤلمة كلماتها:

-آه يا سولافة... آه من هنا وآه من هناك. عذابات هي رحلتك في الحياة. هناك تركت الوطن متفتّق الجراح. تركت الصّحب وبعض

الأهل. تركت أفراحك. تركت حبيبك ياسر. تركت بعض ذكرياتك تحت شجرة الدّاماس الشّامخة الطّول. المتفرّعة المتشابكة الأغصان. الظّليلة الدّائمة الخضرة. المحلاّة بحمرة في بعض أوراقها. تلك الشّجرة الكبيرة التي تتوسّط السّاحة العامّة ببعشيقة. الكثير من الشبّان والشابّات ربطوا بها خرق أقمشة ملوّنة. سميت شجرة أحلام شباب بعشيقة.

حبيبك ياسر يذكّرك أيضا بغابة الحدباء النّموذجية وأشجارها المتنوّعة والجلنّار وأوكالبتوس وأشجار الزيتون واشجار الجوز واللّوز..

الآن لم يبق أمامك غير الحنين ورياح الذّاكرة العنيفة. أحلامك مرشوقة بالمسامير. ذكرياتك.. مسامير ندمي بحلقك وكامل جسدك. قمر نيويورك أيضا أصبح يرشقك بالمسامير كلّما وقفت أمام بلور نافذة. بيتك المضطجع فوق أهداب الضّباب.

صوتها الخفيض المضطرب المختنق بسدّ دمع يسدّ مجاري حبالها الصّوتية وقطّع أوصال قلبي فعضضت أطراف أصابعي وقد انتحرت الكلمات على أعتاب قلمي .

سولافة لم تكن تعرف بحشرية الكتّاب مثلي. لا تعلم أنّنا لحاء أشجار تغلّف كلّ العالم بكائناته ونباتاته وأشيائه. لا تعلم أننا هلاميون

في الزّمان والمكان بخيالنا وإحساسنا المرهف. لهذا لم تتفطّن إلي وأنا ألبسها كظلّها منذ كانت كمهرة حرّة في أحراش بعشيقة. لا أظنّها تعلم أنّني أنقل لكم كلّ حركاتها وسكناتها وهي التي تحسب لكلّ شيء حسابا. لو كانت تعلم هل كانت ستتّخذ من الغيمة صديقة وتسرّ إليها بمكنون قلبها وهواجسها؟.

أصبح الهواء باردا ورطبا في الشّرفة. دلفت إلى غرفتها. تحرّرت من ثوب العمل المقيّد للحركة. عند خروجها تفضّل الجينز ككلّ نساء جيلها رغم أمريكيته. نزعت قميصا قصيرا كان يستر نصفها العلوي. مقعّر من الأمام وطويل من الخلف. تناسبا مع هبّة موضة تركية غزت العالم.

شعرها الكستاني المجعّد يعطي انطباعا بتمردّها وتحرّرها ككلّ الفتيات الغربيات. لكن الفتاة التي بداخلها لا تمتّ بأيّ صلة إلى الفتيات الغربيّات ولا إلى تحرّرهن أو تمرّدهن... تحرّرها وتمرّدها من نوع خاصّ جدّا. لا يخصّ إلاّ بنات الموصل وبعشيقة تحديدا.

برشاقة ترتدي ثوبا قطنيّا خفيفا. تتناول صحن سلطة أعدّتها صبحا خصّيصا للحمية. بدا وجهها الجميل شاحبا وحزينا. كلّ شيء صامت من حولها. من إبريق شاي فضيّ سكبت كأسا. تحرّكت ببطء

إلى سريرها المعدنيّ المذهّب. على يمينها مشجب الملابس الأبنوسيّ. على المنضدة الصّغيرة جريدة البارحة وجهاز راديو صغير اشترته من السّوق المستعملة. ثبّتت إبرته على موجة إذاعة صوت العرب.

يسارع اللّيل في خطوه. على عجل يقتحم نافذتها مظلما كثيفا. يحتدّ ضجيج السّكارى أسفل البناية الشّاهقة العظيمة الرّابضة أطراف المدينة.

صخب صباها يغزو وحدتها ليسرع في هرولته أمام عينيها. تتدافع الجراح ثخينة في الذّاكرة وتتوه بين الهواجس والظّنون. هي خارج التّاريخ الذي يكتبه بنو وطنها بالدّم. خارج الكون الذي يستمتع ساكنو أرضه بفرجة القتل والدّم. اليوم هاجم الصهاينة مدينة رفح وسووها بالأرض. اغلب النساء والأطفال بخان يونس قد قضوا بغارات مسيرات استهدفت خيام اللاّجئين. ما أكثر اليتامى وما أكثر الثكلى هناك. كل ما تشاهده بالتليفزيون او الأنستغرام عن الحرب ضد فلسطين الأرض المحروقة ويذكرها بما عاشته في العراق .

هي الآن غريبة . لا وطن. لا مسقط رأسها بعشيقة. لا أهل. لا صحب. لا حبيبها ياسر هنا. يغادر القمر أيضا مكانه ملتحفا بغيمة عملاقة تلبسه لحافا، ليتركها وحدها ترتجف من ذكرى طفلة يقتلها

الرّعب. خوفا من دمية تلبس فستان عرس أبيض شفّاف، مضطجعة وسادة نومها في الظّلام.

تداعب دون اكتراث خصلات شعرها، عيناها ساهمتان في مجسّم خشبيّ لحدائق بابل المعلّقة. كانت قد اشترته من أسواق واشنطن عندما زارتها آخر مرّة خلال عطلتها الصّيفية. رفقة زميلتها في العمل جاكلين الفرنسيّة. يومها أصرّت على شرائها رغم ثمنها الباهظ. اشترتها وقطعت عطلتها لأنّها دفعت فيها كلّ ما لديها من مال. كان المجسّم نسخة من ثانية أتتها هديّة في أيّامها الرّغيدة بعراقها. أهداها لها حبيبها ياسر في عيد ميلادها السّابع عشر قبل رحيلها من بعشيقة بسنتين. يومها كانت تقف مع أمّها في طابور الخبز. فجأة تدافع من بالصفّ حيث الفتحة التي تخرج منها يد متّسخة تمسك بأرغفة يتلقّفها من يحين دوره. دهس أحدهم رجلها من الأمام فتهاوت إلى الوراء، لتجد يدا تمسك بذراعها وتمنعها من السّقوط. كانت يد ياسر. ياسر حبيبها.

هي وياسر ولدا زمن أزمة العراق. بداية العدوان الأمريكي عليه في أول التسعينيّات. لم يعرفا من العراق الجميل الآمن غير ما قرؤوه في الكتب أو شاهدوه في الأفلام الوثائقيّة. أو ما رواه الأهل والمقرّبون

زمـن الحـداد المتواصـل في البيـوت. زمـن مواكـب العـزاء المتعـدّدة في حيّهـا يوميّـا. زمـن البـكاء والعويـل. هـم مـن جيـل الجمـر. جيـل الصّواريـخ والكاتيوشـا والأسـلحة الكيميائيّـة والجرثوميّـة. زمـن الذّبـح والقتـل بغـير حـق. زمـن حـرب أهليـة طاحنـة. زمـن الإرهـاب والإرهابيـين مـن ذوي القربـى. زمـن المقابـر الجماعيـة المنتـشرة عـلى جوانـب الشّـوارع وفي السّـاحات العامّـة. وفي المعاهـد والكلّيـات والمنـازل المهجـورة.

الحقيقـة تقـال أنّ الأمـر في بدايـة التسـعينيّات لم يكـن كـما هـو الحـال بعـد ذلـك أو الآن. كانـت بعـض المـدن والأحيـاء آمنـة كبعشـيقة ولالـش. كان يمكـن للعراقيـين أن يمارسـوا حياتهـم اليوميّـة ببعـض الأفـراح الآمنـة. لذلـك هـي تتذكّـر وادي الصّمـت وتتذكّـر لالـش وبعشـيقة. تتذكـر بغـداد التـي سـافرت إليهـا إحـدى مناسـبات الأعيـاد لزيـارة عمّتهـا عاكفـة. تلـك الصّـورة الجميلـة عـن بعشـيقة والعـراق التسـعينيّات لازالـت ترافقهـا إلى الآن.

فكـرّت مليّـا بوطنهـا وأهلهـا وحياتهـا. لتجـد أنّ أغلـب الأيّـام واللّيـالي تتشـابه، وأنّ يـاسر هـو كلّ مـا كان لهـا مـن فـرح في بعشـيقة. هـو حبّهـا الأوّل وبنـدول خفقـات قلبهـا الأولى.

حمولـة شـوقها إليـه وإلى تلـك الأيـّام كبـيرة. لكنّهـا هنـا في نيويـورك

وهـو هنـاك لا تعـرف عـن مصـيره شـيئا، ولا عـن بعشـيقة إلاّ مـا تنقلـه وسـائل الإعـلام. ربّـما قـضى يـاسر في هجـوم إرهـابيّ. أو قـد يكـون في صفـوف أحـد معسـكرات الحـرب ضـدّ أعـداء الفـرح، وضـدّ أعـداء الحبّ والجـمال في العـراق. وضـدّ الإرهـاب المعشّـش في العـراق ككلّ.

غـادرت مكانهـا أمـام النّافـذة. جلسـت إلى منضـدة سداسـية الأضـلاع بنّيـة اللّـون تتوسّـط الحجـرة. عليهـا لوحـة زجاجيـة بنفـس الشّـكل. تظهر منهـا عـدة قطـع نقديـة تحكـي تاريـخ العـراق الطّويـل.

شـدّت عـلى أسـفل مؤّخـرة رقبتهـا بيدهـا اليـسرى وهـي تمسّـدها في حركـة انـزلاق إلى الأمـام. ثـمّ تسـند ذقنهـا عـلى أصابعهـا الأربعـة المحنيّـة باتجـاه فوديهـا رافعـة رأسـها قليـلا. مصوّبـة نظرهـا إلى أعـلى الجدار، أسـفل السّـقف. قبالتهـا كأنّهـا ترغـب باختراقـه. لتكـون في رفّـة جفـن أو خفقـة جنـاح حمامـة هنـاك. حيـث يجـب أن تكـون. إلى جانبـه ومعـه ومـع أهلهـا وناسـها وبنـي وطنهـا. كـم هـي مرهقـة وحزينـة. مغتمّـة ومعكّـرة المـزاج. أغمضـت عينيهـا قليـلا لتسـترجع أنفاسـها المتقطّعـة وتهـدّئ روع روحهـا المفعمـة بالحـيرة. المعلّقـة في مشـجب امـرأة أهملـت ملابسـها.

كقطّـة هرمـة تفطّـس منخراهـا. جذبـت الهـواء بصعوبـة قـدر مـا اسـتطاعت. لا شيء داخلهـا غـير الخـواء والسّـأم. تتمنّـى أن تنسـى. أن

تنسى كلّ شيء مبكّرا جدّا. في سنّ غضّ نعقت الغربان السّود على رأسها وفي شعاب دماغها وغرفه. البارحة جافاها النّوم. مزاريب الحزن أحدثت جداول بروحها وقد تصير انهارا وتفيض. ربّما ستعصف بها تسونامي قريبا.

بدأ اللّيل يرحل لكن لا تزال العتمة تسربل السّماء. كان الوقت لا يزال مبكّرا. في الأسفل الحركة المرورية خفيفة. بعض شآبيب الضّوء تدخل النّوافذ. بكلّ شجاعة وبكلّ إقدام تتقدّم من النّافذة المواجهة لها تماما. تسطو على بعض الشآبيب وتخبّئها بروحها لتستجمع معنوياتها المفتّتة. علت وجهها ابتسامة ساحرة. شعرت بانتعاش غريب وبقوّة خلاّقة وإرادة صلبة كالحديد. نهضت متحدّية التّثاقل الذي يشدّ رجليها إلى الأرض. بنفس الطّريقة التي تقذف بها فضلات المنزل كلّ صباح إلى المكان المعدّ لها، رمت بأحزانها. هي لا ترد أن ترمي بتلك الآلام كنفايات بيتها إلى الأبد. فقط تريد أن تهجرها لساعات. ليتسنّى لها أن تعيش بسلام يومها ذاك في انتظار ليل جديد يأتيها من جديد محمّلا بالآلام.

هي تعرف أن المواطن العراقي «عميل للفرحِ وبائع للسّرورِ الواسعِ، ويملك حانوتاً مفتوحاً على مصراعيه للضّحكة الرنّانةِ»

بالرغم من كلّ شيء.

أمّا هي فتخبئ وطنها في صدرها وبين نهديها أينما ذهبت. العراق برقعته الجغرافية الكبيرة. بفسيفسائه البشريّ. بثرواته المتعدّدة. صار شريحة صغيرة تلصق تحت لسانها. عقدت صفقة مع نجمة تزورها كلّ ليلة من شرفة بيتها. تأتها بأخبار بلادها. تأخذ قليلا من حمم أشواقها إليها وإلى ياسر. تلك الحمم الوردية والذّهبية والفضّية. تلك النّجمة تعدّ كلّ ليلة على بساط الأفق حفل زفاف سولافة وياسر. تنثر الورد والياسمين والأرز على سكّان الأرض. لذلك تستيقظ النّسوة في الصّباح لتكنس أرضيّات منازلهن من مخلّفات وبقايا عبوّات عصائر وفناجين وأصحن بلاستيكيّة ومناديل ورقية. رمت بها نجمة سولافة من فوق. من بعيد. من الأفق الجميل.

فالنّهار ليس ملكها وحدها. هو ملك المحيطين بها من زملاء عمل وأصدقاء وجيران. لذلك عليها أن تترك أحزانها في صندوقها الأسود وتحكم قفله.

الابتسامة كالخبز ملك للجميع أما الوجع فخاصّ جدّا يلزمها وحدها. رحل اللّيل ورحلت العتمة ومعهما نجمتها المفضّلة. بدت ملامح وجه سولافة الهادئة البريئة أكثر ملائكية وأكثر جاذبية. رفعت

رأسها وصوّبت نظرها حيث السّاعة الحائطية البندولية.

إنهّا السّابعة صباحا إلاّ خمس دقائق. بسرعة أعدّت لنفسها قهوة عربية منكّهة ببرش البرتقال. ارتشفتها بلذّة وسرعة فائقتين. لفّت شطيرة من خبز الذّرة محشوّة بجبن مخفوق في البيض وورقتين من الخسّ، وبعض المخلّلات وقطعة لحم خروف اشترها من محلّ جزّار يبيع الحلال. وضعتها في حقيبة بلاستيكيّة مع مناديل ورقيّة وعلبة صغيرة بها بعض المعمول اللّذيذ عادة ما تعدّه بنفسها وقارورة ماء.

لبست بدلة من قماش الكتّان الخفيف المرسوم عليه بعض زهور عبّاد الشّمس. سرّحت شعرها وعقصته إلى فوق، فبدا قرطاها جميلين بلون الزمرّد متدليين على عظمتي الفكّين من الأسفل. ممّا أضفى عليها مسحة جمالية وثقة بالنّفس. رشّت بعض العطر ومسحت راحتيها بمرهم لليد. ثم أخذت حقيبة من نفس لون وقماش البدلة والحقيبة البلاستيكيّة المعدّة لغدائها اليوميّ. نزلت بواسطة المصعد إلى الطّابق الأرضيّ ودلفت بسرعة إلى المرآب. رمت بالحقيبتين في المقعد الخلفيّ لسيّارة المرسيدس السّوداء. أخذت مكانها من أمام المقود وغابت في ازدحام شوارع نيويورك. بعد ساعة من المسير بالسيّارة دلفت إلى حيث بناية أكثر علوّ من البناية التي تسكنها. أين

تعمل متدرّبة عند طبيب جرّاح لستّ ساعات. يسبق دوامها موعد المحاضرات في الجامعة. أين تواصل دراستها في اختصاص التّشريح.

دخلت مكتبها في العيادة بعد أن ألقت بحقيبة يدها في درج صغير على يمينها وأفرغت محتويات حقيبة فطورها في جوف الثلاّجة. مستثنية ترمس القهوة الذي وضعته على مصطبة صغيرة تعلو الأرضية بحوالي شبرين. لكي لا يراها من يدخل مكتبها. جلست وهي تفرقع أصابعها والعلكة التي تلوكها منذ أن خرجت من البيت ترقص في اضطراب كبير بين أضراسها. عادة تتخلّص منها فور ركن سيّارتها. تعوّدت مضغها عند السياقة لتضبط نفسها وتحافظ على قليل من الهدوء أمام السياقة الفوضوية الرّعناء لأغلب شباب نيويورك المتمرّد على القوانين والضّوابط .

لم يسرّها أن تبدأ ساعات عملها الرّتيب بحالة من التوتّر. عليها أن تستمرّ في مقاومة آلامها وأن ترتق ماتفتّق في مساحة عمرها الصّغيرة نسبيا. عليها أن تخاتل القدر وتتصالح معه ولو قليلا. ليصلح أمرها وتتّسع دائرة نفوذها وتحرّكها في جغرافيا الحياة وتضاريسها المتعدّدة والمعقّدة. هي الآن تطلّ من ثقب إبرة. محاولة الخروج من بوابتها الصّغيرة لتدلف إلى السّعة والرّحابة متناسية أنّها قد تتخلّى عن بعض

ضلوعها ليتسنّى لها الخروج. هي تعيد صياغة مقدّمة تليق بحياتها.

لكن في غمرة التّشرذم والألم. في عمق عقلها الباطن تعلم أنّ أطياف الماضي تهجم عليها بشراسة. الحزن وحش شرس يغرز بشدّة مخالبه وأنيابه في روحها. هي وأبناء وطنها من عرفوا جغرافيا الحزن أوج انتشارها في عيونهم ذات النّظرات الرّمادية.

تحاول سولافة أن ترمي بكلّ حملها الثّقيل وبكلّ إرثها من الألم خلفها. تسقط كلّ التّفاصيل التي تعكّر صفو أيّامها. تقول بأنّها من فصيلة السّايبورغ وهو الإنسان الهجين الذّي تحتاجه الصّناعة. كأن يستبدل شريانا فاسدا بآخر أو تويجات قلب تعطّلت بما يعوضها أو عدسة عين ما عادت تجد للنّور مكانا بأخرى حبة الأرزّ من الأرض.

ظلمة سولافة الحالكة هي الفجر القادم من عتمة الرّوح. يمّمت نظرها السّاهم شطر الكأس نصف الملأى. ملأت النّصف الفارغ بعصارة ذوب قلبها المتعطّش للفرح. أبحرت بين جوانح الأمل المفرودة كورقات زهرة الأقحوان. نجمة جميلة تومض من أقاصي أحلامها المسبيّة من وحش يبتلع العالم ويطحنه بين فكّيه من أجل الحصول على ثرواته.

هي النّبتة البرّية في أحراش الثّقافة الأخطبوطية لهذه المدينة. المدينة

التـي ينسـى أهلهـا كثـيرا أن الهامبـورغ الـذي يأكلونـه معجـون بدمـاء ودمـوع يتامـى وثـكالى العـالم. محشـوّ بأكبـاد وقلـوب تنفطـر وتتفتّـت خزنـا وألمـا وكمـدا .

قـررت قبـل خروجهـا للعمـل أن تتخـلّى عـن أحزانهـا. عـلى الأقـل خـارج بيتهـا ليتسـنّى لهـا العيـش بسـلام في هـذا البلـد الـذي يتزعّـم الجملـة الشّرسـة للسّـلام العالمـيّ عـلى طريقتـه ومقاسـه الخاصّـين. فحـضر كلّ بديـع عجيـب إلّا السّـلام العالمـيّ.

الفصل الرّابع

الصّعود إلى الهاوية

لم يهبط اللّيل بعد. بعض النّور يتسرّب من شقّ بين قسمي السّتارة الذّهبية اللّون. بعضه ينعكس على فرو قطّتها الرّمادية ذات العينين الزّرقاوين. التي بدت لها فاتنة وجميلة من خلف زجاج النّافذة وهي تحدّق فيها من الجهة المقابلة. زادتها قطرات المطر المنهمرة على شعر فروها المسترسل الطّويل جمالا وفتنة. لكن صوتها بدا واهنا بعيدا. كانت مقرفصة على الدّعامة الرّخامية للنّافذة من الخارج. في موائها استعطاف لسولافة لتفتح لها وتخلّصها من برودة الطّقس والمطر.

رفعت سولافة زجاج النّافذة وانزاحت بقامتها إلى اليسار قليلا. فاسحة المجال لقطّتها المدلّلة لتدخل. لكنّها نطّت بخفّة إلى حضنها ولم تقفز إلى الأريكة القريبة أو المنضدة.

تلقّفتها سولافة بسرعة وهي تقهقه. ضمّت جسدها الصّغير

المختلج من البرد والخوف والجوع.

تناولت قطعة من بطّانية صوفية. كانت موضوعة على ظهر الكرسيّ. تستعملها عادة لتدفئة رجليها وهي جالسة تراجع بعض الدّروس والمحاضرات الطّبية. لفّت بها القطّة ثم وضعتها على الأريكة وأمامها صينية بلاستيكيّة عليها كأسا كبيرة بها حليب دافئ. أمّا خارجا فالعتمة راحت تغمر قامة الشّارع الطّويل الممدّد بين المباني الشّاهقة وكأنّه المشرّد في تاريخها وحكاياتها. ظلّت الرّيح تضرب بعنف اليافطات وأبواب المقاهي وأبواب المتاجر وأعمدة الإضاءة. كانت ندف الثّلج النّاعمة المتلألئة تنزل من وجنتي السّماء الحمراء. كخرز عقد جوهر منفرط على أديم إسفلت الشّارع الذي بدا هو الآخر فضيّ اللّون تحت نور فوانيس الأعمدة المصطفّة على اليمين وعلى اليسار.

كانت سولافة بثوب النّوم الأبيض القطنيّ تشبه عرائس السكّر وهي تتحرّك بخفّة بين غرفتي النّوم والجلوس والمطبخ في ليلة ماطرة تشعرها بالخواء والوحشة. وحيدة لا أنيس لها إلاّ قطّتها الرّمادية الجميلة.

رنّ الهاتف:

-مساء الورد سولافة.

-مساء المحبّة شادية.

-كيف الحال، منذ مدّة لم نلتق، أفتقدك.

-وأنا أفتقدك جدّا. آمل ألاّ أكون قد أزعجتك في هذه اللّيلة الماطرة. ربّما لديك ضيوف وأنا شغلتك عنهم.

-لا لا... ما معي غير قطّتي ريحانة. تعرفينها. أنيستي ورفيقتي ومبدّدة وحدتي.

-سولافة... ماذا أقول؟. في الحقيقة هاتفتك... ماذا أقول يا ربي.. ؟.

-ماذا شادية؟. تكلّمي شغلتني.

-في الحقيقة ـأحمل خبرا ليس جيّدا.

-أستر يا ربّ. هل ياسر؟. ماذا حصل لياسر ؟. هل اعتقل أم أغتيل؟. قولي شادية أعصابي تحترق.

-لا... لا... ليس ياسر.

-إذا أحد أقاربي هناك؟.

-ولا هم أيضا.

-إذا أفصحي.

-صديقنا الطّبيب الذي تعرّفنا إليه في إحدى الدّورات التّكوينية توفيق.

-تقصدين الطّبيب التّونسي؟.

-نعم هو.

-ما به؟.

-كلّ القنوات التلفزيونية تتحدّث عنه نهار اليوم.

-هل حقّق نجاحا باهرا في الجراحة ؟.

-ليت الأمر كذلك.

-ما الأمر شادية؟ لقد روّعتني؟.

-يعمل طبيبا داخليّا في أحد مستشفيات الشّمال الغربي التّونسي.

- هذا جيّد. خبر رائع. سرعان ما وجد شغلا في بلد تفاقمت فيه بطالة أصحاب الشهادات العليا واستعصى الحلّ حتّى بات مستحيلا. لاستفحال فساد بعض الأحزاب المتحكّمة بدواليب هذه

الدّولـة العربيّـة.

-للأسـف عـلى مـا أعلـم، توفيـق تـوفي اليـوم. هـبّ مسرعـا لإنقـاذ أحـد المـرضى بقسـم آخـر. لكـن لعجلتـه لم يتفطّـن إلى أن المصعـد معطّـلا. حالمـا وطـأه سـقط مـن الطّابـق الخامـس وأخرجـوه جثّـة هامـدة .

-يـا إلهـي مـا هـذا الخـبر المحـزن فعـلا. كان فخـورا جـدّا بوالدتـه التـي كان لهـا الفضـل في نجاحـه وإخوتـه بعـد فقدانهـم والدهـم الـذي مـات هـو الآخـر في حـادث مـروّع وتركهـم يصطلـون بنـار اليتـم والخصاصـة. كان آنـذاك في عمـر السّـبع سـنوات... مسـكين توفيـق.

-نعـم ذكـر باعتـزاز أنّهـم درسـوا وتخرّجـوا مـن الجامعـات بتفـوّق بفضـل تضحيـات أمّهـم.

-نعـم ثلاثـة أطبّـاء ومهندسـان وأسـتاذة. أوسـطهم صديقنـا المأسـوف عـلى شـبابه. لم يتجـاوز السّـادس والعشريـن ربيعـا. والآن تفقـد الأمّ المسـكينة سـند عائلتهـا الوحيـد لأنّ أشـقاءه لم يشـتغلوا بعـد.

أحسّـت سـولافة بيديهـا باردتـين أكثـر ممّـا ينبغـي. تهالكـت متعبـة عـلى كـرسيّ خشـبيّ قريـب مـن منضـدة الهاتـف المـدوّرة الصّغـيرة الرّابـض فوقهـا هاتفهـا البنـيّ الدّعسـوقي الشّـكل.

-يا رب أهذا حال شعب تزعّم الرّبيع العربيّ؟ربيع تبخّر قبل أن يتلوّن بخريف شاحب. شاخت معه أحلام شباب هرم قبل أوانه كشجرة سنديان قتلها العطش. أطفال يموتون ويوضعون في كراتين. كشك يهدم على رأس صاحبه. شابّة ذات الواحد والعشرين ربيعا تسقط في بالوعة وتموت. أخرى تغتصب وتقتل وتدفن في قلب المدينة تحت شجرة.

عناوين موجعة ومثيرة. يسقط من المصعد. يخرجونها من البالوعة.

-آه توفيق كنت السّعفة التي قسمت ظهر البعير. كان الله في عون أمّك وبلدك.

-نعم كان الله في عون هذا البلد. لم نعد نسمع ما يسرّنا عنه. بعد أن فرحنا بنجاح ثورته. يعاني الآن من الفساد والإرهاب والتّهريب وأزمة اقتصاديّة خلقت أزمة اجتماعية. للأسف من يستعجل قطف العنب قبل نضوجه يأكله حامضاً... كما يقول المثل العربي.

- الصينيّ يقول لا ننتظر نموّا طبيعيا من شجرة تولد معوّجة ومن استهان بالوقت نبذه الزّمن. فوق ذلك كورونا تحصد آلاف الأرواح. حتّى ما تزمع دولتهم توفيره من لقاح لا يكفي ربع السكّان. أظنّهم يخططون لتطعيم السياسيين والصّف الأوّل من أعوان الصّحة وسلك

الجيـش والأمـن فقـط.

-البقيـة سـيتركون وحسـب سياسـة القطيـع ليجابهـوا مصيرهـم. اللّعنة عـلى الفسـاد السـياسيّ. مـاذا أقـول رحـم الله توفيـق المسـكين.

-رحمه الله... كم كان طيّبا ومحبّا لمهنة الجراحة.

الباب الثاني

فقدنا مرّة أخرى هذا الغسق...
ولا أحد رآنا متشابكي الأيدي
بينما كانت القمّة الزّرقاء تهبط على العالم.

بابلو نيرودا

الفصل الأوّل

دوّل تشحن في حاويّات

من الحمّام جاء صوته متهدّجا واهنا بعض الشّيء لاهجا بقصيدة للشاعرة نتالي كامل:

«دعونني أنام ألف عام..

ثم أيقظوني

أخبروني أنّ وطني قام من الحطام

وأنّ النّور في أهله قتل الظّلام

زفّوا إلي خبر ميلاد السّلام

زغردوا على أحداقي ودعوه يرقص الحمام

ثم بشّروا

لا جريح في بلدي. لا شهيد

لا معتقل في سجونه. لا شريد

أن ولىّ الطّمع

مات الوجع

وأقبل العيد.»

-هذه القصيدة لنتالي كامل أليس كذلك. حافظتك جيّدة ياسر.

يخرج وينتصب شامخا في الممرّ:

- نعم هي لها.. ثمّ أنسيت أنّني سليل المتنبّي والبيّاتي والجواهري والملائكة وغيرهم... أم أنّك وحدك مختصّ في الفنون والثّقافة العامّة؟.

-لا أقصد ولكن امتعاضك من الكتب يكشف حقيقتك.

يتنهّد ملء صدره:

-كنت أقرأ كثيرا لكن بالي لم يعد خاليا. همومي كثيرة وكبيرة.

وصل نهاية الرّواق:

-هل نخرج اليوم للتسكّع في المدينة.

-التسكّع في مدينة نيويورك؟. هل جننت؟.

-أقصد بالسيّارة.

أشعل سيجارة وغرس عود الثّقاب المشتعل في مطفأة على يمينه فوق منضدة مدوّرة وعالية معدّة لاستعمال الواقفين. وقبل أن يضع فنجان القهوة من يده:

-لم لا؟. حقا أنا مدين لك بالشّكر. اليوم راحتي الأسبوعية. المطر توقّف مع ساعات الصّباح الأولى. من الرّائع أن نتسكّع.

-لنفعل ذلك.

بعد أكثر من ساعة من السياقة تركا السيّارة وسارا راجلين بين صفوف حجارة في الميناء يتكلّمان ويقهقهان.

كان وجه الشّمس الباسم يلوّح في الأفق البعيد. انشغل محمود بالتقاط بعض الحجارة البلّورية الصّغيرة الملوّنة وهي عادة دأب عليها منذ الصّغر على شاطئ اللاّذقية. حين كان يرافق أهله وأترابه خاصّة في الأمسيات الصّيفية والخريفية. فالصّيف يعني له الجمال والمتعة والخريف يعني له الطمأنينة والخصب والنّماء على عكس الجميع الذين يرون فيه الحزن والتقلّب والقلق.

بعيدا عنه بقرابة خمسة أمتار. بدأ ياسر ساهم النّظرات غريقا في هواجسه. كانت مياه مطحلبة رصاصية تغمر روحه. وجهه في غاية التغضّن والتّعب، متابعا طريقه دون إحساس بالإعياء...

من حين لآخر يشاغبه محمود بكلمة فيردّ مجاملة بابتسامة صفراء لا معنى لها. كابتسامة أبله لا يعي مكانه

ولا زمانه...

المتعة الوحيدة في مسائه أنّه تحرّر من الكمامة الكاتمة لأنفاسه منذ أكثر من سنة، بسبب وباء فيروس كورونا المستجدّ اللّعين. بقايا الجثامين التي تحرق يوميّا في أمريكا وإيطاليا وبريطانيا وكلّ أوروبا وآسيا أكثر من حطب غابات الأمازون المستنزفة والمتسبّب إهدارها في فتق الأوزون والاختلال البيئيّ العنيف.

الكون بكلّ جماده وكائناته الحيّة يئنّ من بطش الإنسان. سكّان الأرض في ما بين أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين تصرّفوا بأنانية وجشع. بغرور وعدوانية مع الكون وموارده الطّبيعية من غابات وماء وهواء. لم يدّخروا لهم إلّا الفقر والأمراض والأوبئة وشحّ الموارد. كوننا غير مرحّب بسكّان جدد.

فـوق رأسـيهما منظـر رهيـب. السّـماء مسـتعمرة لونـين يحـاول أحدهمـا ابتـلاع الآخـر. الرّمـاديّ الغامـض المخيـف والأحمـر المرعـب كنفـخ التنّـين الأسـطوريّ .

بعـض النّـوارس والغربـان تعـزف سـيمفونية حزينـة تفتّـت القلـب. ربّـما تحـسّرا عـلى بيئتهـا المهـدّدة كلّ يـوم. أو عـلى انقـراض الكثـير مـن فصائـل الطّـير والحيـوان والنّبـات. لعـل نـصّ السّـيمفونية لعنـة للإنسـان الأنـانيّ الدّمـويّ سـليل شـهوته

وطمعه.

أمامهـما عـن بعـد. لاحـت جبـال رمليـة ذهبيـة. تبـدو كبيـادر قمـح عملاقـة وإلى جانبهـا صناديـق شـحن كبـيرة لا تحـص ولا تعـدّ.

هـال يـاسر مشـهد الجبـال الذّهبيـة وتفرّقهـا عـن بعضهـا وعددهـا الـذي يصعـب حـصره ممّـا أثـار غرابتـه وريبتـه... فـصرخ:

-عجبـا محمـود... أنظـر... أيعقـل هـذا؟. جبـال بهـذا الجـمال الأخّـاذ وهـذا العـدد الكبـير والعلـوّ الشّـاهق كجبـال سـيرا نفـادا لم تذكرهـا الجغرافيـا ولم يقـل عنهـا مجسّـم الكـرة الأرضيّـة شـيئا.

محمود في مرارة:

-ليست جبالا ولا دخل لعلم الجغرافيا بها.

-يا للهول ماذا إذا؟.

- رمالنا؟.

- رر... ر... م رمالنا؟. لحظة من فضلك. هل تحوّلت أراضينا هنا؟.

- نعم في هذه الصّناديق... أقصد الحاويّات العملاقة.

-كيف؟.

- إنّها رمال المغرب العربيّ تونس والجزائر وليبيا وموريتانيا ورمال المشرق والخليج العربيين.

- أيّ مصيبة هذه؟. أيفرّطون في هذه الرّمال الذّهبية التي تشرح الرّوح ويعرّضون التّربة لخطر الانجراف والتآكل ليأخذوا مكانها النّفايات وتدفن في ما تبقّى هناك.

- نعم تستعمل للصّناعة هنا ولتجميل الشّواطئ والمنتجعات.

-أتشحن دوّلنا إلى هنا في صناديق؟.

- للأسف نعم... .

– أكاد أجنّ. عقلي لا يستوعب الأمر. ألهذا الحدّ نفرّط في بلداننا؟.

– وأكثر يا صديقي هيّا لا تؤلم رأسك أكثر. لقد ابتعدنا عن السيّارة كثيرا والمساء بدأ بالأفول.

الفصل الثّاني

جحيم من بعض بني القربى

في رماد عينيها نما الفطر. تاه قطارها في منعطف السنّين. أرصفة العمر تهترىء كلّ يوم. من فناء البناية المقابلة تومض أضواء خافتة. صديقتها الوديعة ذات الفرو الرّمادي والعينين الزّرقاوين تشاكس لوحة بها رسم لإله الرومان كيوبيد. بأظافرها كانت تخمش رسم الطّفل العاري ذي الجناحين الذي يحمل قوسا ونشابا. جيئة وذهابا استمرت سولافة في تحريك الخاتم الذي تلبس لدقائق غير محدودة القلق يفتك بها و بجسدها المرتعش. حاولت ألاّ تمعن التّفكير في الأمر. اجتاحتها برودة الحجر. تعب يطوّقها ويسكن قدميها. يشدّهما في عنف إلى البلاط تحتها. الخواء كان قد أصاب أعماقها. كانت ترتدي فستانا ورديا طويلا، بفتحة عنق كبيرة تكشف مساحة لا بأس بها من صدرها. أظافرها طويلة مقلّمة ومطلية بلون وردي أكثر توهّجا من

درجة لون فستانها.

مع اقتراب اللّيل تحوّل لون الأفق إلى أرجوانيّ فاتن. رائحتها العطرة الخلاّبة تملأ المكان. بغتة لمعت عيناها. شعرت بانتعاش غريب في رئتيها. بدا أنّها تسابق الزّمن رغم سنوات أنهكتها تعبا. خشخش الأمل بداخلها، حفحف كورقة خريف بانتظار طلل لينبت من جديد. ما عاشته وما شهدته منذ سنّ التاسعة عشرة يهزّ الجبال ويبكي البحار.

هربت من سجن أبو غريب في حاوية قمامة في مكبّ للنّفايات وفي الأحراش وجدتها امرأة قيادية في داعش. عانت أشهرا مرارة الاغتصاب والضّرب. لمّا يئست من الفرج استخدمت كيد بعض النّساء وتظاهرت بداعشيتها وبتقبّلها أن تكون لكلّ داعشي. فاطمأنّوا لها وانطلت عليهم الحيلة.

سلّمت لها القائدة أمر المئونة والمطبخ بصفة عامّة. صارت تخرج إلى السّوق لشراء ما يلزم المجموعة من مأكل ومشرب وألبسة وأغطية.

في البداية كانت تذهب وهي مراقبة وكانت تعلم ذلك ولكنّها تتظاهر بخلوّ ذهنها من هذه المعلومة. لمّا اطمأنّوا لها وتأكّدوا

مـن عـدم نيّتهـا الهـروب. أتاحـوا لهـا فرصـة أن تتسـوّق بمفردهـا. ذات يـوم كانـت الغـارة عـلى مجموعتهـم كبـيرة وكبّدتهـم الكثـير مـن الأرواح. اسـتغلّت فـوضى القصـف وأطلقـت العنـان لرجليهـا مسـابقة الرّيـح إلى كـوخ امـرأة سـتّينية. وجدتـه في طريقهـا خـارج العمـران، اتّضـح أنّ مالكتـه كهرمانـة. وصلـت إليـه بعـد ثلاثـة أيّـام بلياليهـا متخفّيـة في هيئـة شـيخ متسـوّل بواسـطة بعـض الأسـمال التـي عثـرت عليهـا بالمكـبّ. أكلت الحشـائش وأوراق الشّـجر. ارتشـفت قطـرات النّـدى مـن عـلى الصّخـور. شربـت زلال بيـض الطيّـور التـي صادفتهـا في طريقهـا. كـما كانـت محظوظة في يومهـا الثّـاني عندمـا مـرّت بأتـان مـع جحـش صغـير حديـث الـولادة. حيـث شربـت إلى الارتـواء والشّـبع مـن حليـب الأمّ ممّـا مدّهـا بالطّاقـة وحفّـز نشـاط وظائفهـا الحيويـة وجسـدها ككلّ.

في اليـوم السّـادس أفاقـت مـن غيبوبـة دامـت يومـين لتجـد العجـوز إلى جانبهـا تبتسـم في مكـر وهـي تكلّمهـا:

-حمـدا عـلى سـلامتك. الله كتـب لـك النّجـاة. خفـت عليـك مـن المـوت. كادت تفتـك بـك الحمّـى. لـولا خلطـة الحنّـاء والبصـل التـي عـلى رأسـك لكنـت الآن في القـبر.

نظـرت سـولافة إلى طائـر حـطّ للتـوّ عـلى دعامـات نافـذة الغرفـة،

فاتحا منقاره من العطش. تناولت مسرعة فنجانا على منضدة يسار سريرها. صبّت للطّائر الماء وقد سحّت الدّموع غزيرة على خدّيها. المشهد ذكّرها بحاجتها للماء بالأيّام الماضية.

-أجزم أنّك خرقاء(قالت العجوز).

قالت وكأنّها تهوي من أعالي شعاب الرّوح:

-لا تترك العصافير تموت إلاّ الأرواح الميّتة الصمّاء. وإذا أردنا أن نحبّ العراق علينا أن نحبّ كلّ ما فيه وما عليه.

علت مسحة من الغمّ وجه الكهرمانة بالرغم من كثرة المساحيق الفاقعة اللّون مهمهمة:

-طوبى لك ولنقائك يا ابنة العراق العظيم. أنا لست مثلك. أنا ملوّثة من رأسي إلى أخمصي قدمي. لمن مثلك تهطل السّماء بالمطر تكريما.

سمعتها سولافة فعرفت من هي وأدركت أنّ سريرتها رغم التلوّث الكبير الذي أصابها نقية. فاغتنمت الفرصة وسألتها:

-وأنت ألست كذلك؟

-لست مثلك.. أنا كهرمانة. جسد المرأة سلعة للعرض وللبيع.

هههه و جسدك الجميل هذا سيدرّ علي الكثير.. هههههه

-لماذا المسافة بين سليقتك النّقية وما أنت عليه الآن. صحراء قاحلة؟.

ردّت وقد احمرّت عيناها كالجمر المشتعل:

-من السّهل ترتيب الاحتمالات بنظرك. أنا لم أكن هكذا بالماضي السّعيد. كنت أستاذة جامعيّة جميلة وحييّة. لي ولدان وزوج محبّ. لي ستّة إخوة وأب وأم حنون. لي أخت صغرى بالثانوية مدلّلة. اشتعلت الحرب واحتلّت العراق. ثمّ بعد جاءت طامتنا الكبرى المتجسدة في الحرب الأهلية الطائفيّة. قتل زوجي وأبنائي وإخوتي الخمسة. أحرق أبي أمام عيني. تداول نفر كبير على اغتصاب شقيقتي حتّى الموت نزفا. شقّوا بطن أمّي لأنهّا من ولدتنا وحشوا فيها جثة قطّة وجاء دوري. اقتادوني إلى خربة وهناك ذقت الأمرّين من ضرب وكيّ واغتصاب لسنتين. لم يقتلوني وظلّوا يعودون إليّ ككلاب مسعورة تطارد الجيف. تعرّفت إلى أحدهم فأبدى استعداده لمساعدتي. أخرجني من هناك في جنح الظّلام. أخذني إلى فيلاّ كبيرة في منطقة آمنة. بعد أن شفيت من جروحي وكدماتي والرّوح لن تشفى فرض عليّ أن أكون له ولضيوفه. وهم رهط من الأطبّاء خاطفي الصّغار والمتاجرين

بالأعضاء البشريّة. بقيت هناك ثلاث سنوات أخرى. هم يمزّقون الأجساد البريئة الصّغيرة أشلاء ليبيعوا معظمها للمافيا العالميّة قطع غيار وأنا أنظّف وراءهم المكان الملطخ بالدّماء والأشلاء وأدفن ما استغني عنه في حفر أعدّت للغرض هناك.

ذات يوم زار جنديّ أمريكيّ المكان. قال إنّني أشبه أمّه الميّتة لذلك سيخرجني. فعلا فعل ما وعد به دون أن يؤذيني أو يمسّني. بعد أن ابتعدنا ترك سبيلي. إثر ليال من المشي وجدّتني في هذا المكان المقطوع أبني كوخا من الأسمال. ثمّ صرت أنا نفسي جلادا وأكثر سوءا ممّن ظلموني ودمّروا روحي وأخلاقي وسليقتي. أنا أنتقم من العراقيين الذين أوصلوني لهذه النّقطة التي لا رجوع منها لأعيش. لذلك صرت أتلذّذ بالمتاجرة بالشّرف. شرف كلّ بنات العراقيين. أبناء جلدتي الذين لم يرحموا عائلتي ولم يرحموني.

سألتها سولافة أكثر وهي تمسح لها خدّيها من الدّموع بكفّيها:

-ما اسمك الحقيقيّ؟.

وهي تتنهّد:

-نسرين.

سولافة محاولة استنهاض هممها:

– أمـم أيـن هـي الآن ؟. أيـن رائحـة النّسريـن منـك ؟. عليـك أن تعمّـري قفـار روحـك بأكسـيجين نقـيّ.

–إن وجـدت أكسـيجينا نقيّـا في العـراق دلّينـي عليـه. لأنّي أكاد أختنـق مـن الغـازات التـي تخلّفهـا الإنفجـارات ويخلّفهـا القصـف. وأقـول لـك مـا قرأتـه مـن كتابـات المدوّنـة والقاصّـة السـعودية هديـل الحصيـف رحمهـا الله:

«أخبرتني أمّي

إنّ دجلة أغنية لا تذبل

وإنّ بغداد لوحة لا يتسلّل إليها النشاز

ونخيل البصرة لا يموت

وذبلت الأغنية

ونشزت اللّوحة

ومات نخيل البصرة

وبقيت وحدي تدخّنني الوحدة

تقتات على الشّعلة الخافتة التي تحتضنها أضلاع صدري

ثم ترميني عقبا متهرئا

وتدوس على وتمضي...»

-تقول الشّاعرة الأمريكيّة آن سكستون في كتابها وقت الميّاه وقت الأشجار

«حذار الكراهية

فما إن تفتح فمها حتى ترمينفسك خارجا

لكي تلتهم ساقك كالجذام»

ولا أقصد بالأوكسجين الأوكسجين الذي تعرفينه.

-تقصدين نقاء الرّوح أعرف. لكن أين أنا من هذا؟. أنا إسفلت في إسفلت افهمي.

وملامحها قد تبدّلت فجأة:

-أنا أيضا مثقّفة وكنت مثلك أحفظ الشّعر ومن أمريكا أيضا تقول الشّاعرة آيه آر آمونز في ديوانها الوريقات تطير من الأشجار كالعصافير:

«الأزميل الهابط

يحفر أسماء

لا تقدر ريح على محوها»

-ابتعدي عنّي هيّا لا أحتاجك لتبعثري سنيني أمامي. أنت كحقوقيّ عربيّ يحاضر ضدّ العنف المسلّط على المرأة وفي اللّيل يضرب زوجته. كلّ شيء له لون القبح في عالمنا عزيزتي. لم آت بشيء من عندي.

-لا تديري ظهرك للنّقاء إن وجدت خيطا يدلّك عليه هذا ما قصدت.

بتعاسة:

-الملجأ الوحيد أن أنسى وأمضي في طريقي إلى الأمام.

-أتوسّل إليك أن تتركي هذه الطّريق .

-اجتاحت نسرين رغبة بالبكاء لكنّها قاومتها. أضافت سولافة مستغلّة انسحاق روح محدّثتها:

-اسمع صوت أعماقك.

-أنا ذبابة سحقها الزّمن.

وهي تلاعب خصلة من شعر سولافة كانت تحاول الرّقص بفعل الرّيح المتسرب من النّافذة أضافت:

-الحياة سلبت منّي ذات وجع من الأوجاع الكثيرة التي عرفت.

دقت سولافة بأناملها فنجانا بيدها وكأنّها تحاول أن تطرد هاجسا من خيالها. باحثة عن شيء ما كان قد انطفأ داخل هذه المرأة وتوارى خلف تجاعيدها. ثمّ كفّت عن لومها وسألتها فجأة:

-وأنا؟.

-وأنت؟. ستكونين من هذه الليلة حنفية تدر الدولارات و الدنانير علي.. هاها... هاهاها..

- أرجوك.. أتركيني أرحل أرض الله واسعة. أعتقيني لا تجرعيني أكثر ممّا تجرعت. أعتقيني. لا أرغب بزبائنك.

شزرا رمقتها وقد لبس وجهها جلد الكهرمانة الكريه وبصوت عال صرخت فيها:

-أغربي عنّي. اذهبي استحميّ. بسرعة لنا زبون مهمّ اليوم ويا ويلك إن لم يخرج راض.

لم تكلّف سولافة نفسها عناء الردّ أو الاحتجاج. لأنّها تعرف أنّ ذلك حرثا للماء. وإهدارا للطّاقة. لن يعرف النّقاء طريقه إلى هذه الكهرمانة من جديد ولن ترحمها. تحرّكت إلى غرفتها ثمّ إلى الحمّام .

كانت صورة جسدها العاري في مغطس الحمّام معكوسة على المرآة أمامها. كلّما محاها البخار مسحت بكوعها وذراعها صفحة المرآة. لتظهر لها صورتها الآدمية في هيئة جدّتها حوّاء وهي تلوح بيدها من أعلى جبل عرفات إلى حبيبها آدم الذي ضيّعته منذ هبطا الأرض بسبب أكلهما من التفّاحة المحرّمة.

استحمّت وتبرّجت مكرهة، دامعة، بانتظار الزّبون كما أمرتها. الرّجفة لم تبرح أوصالها وجدران الغرفة تترنّح في مشاكسة للأرضية والسّطح معا.

جاء الزّبون الهشّ البشّ. اقتحم عزلتها. لكن لم يطب مقامه طويلا. ما هي إلّا دقائق حتّى سمعت الكهرمانة وابلا من الشّتائم والصّراخ. ثم انفتح الباب بطريقة عنيفة ومباغتة. خرج زاعقا ثائرا وعيناه ككرتي نار. أمّا لسانه فأشدّ من سيف أرطوغرل زعيم الدّولة العثمانية:

-هل هذه امرأة... ؟. هذه كلبة... ؟. كلبة هذه... ؟. من أيّ

مزبلة عثرتم عليها. آه نسيت هنّ كثيرات بعد أن بيع شرف الماجدات. لعنكم الله جميعا. لعنني الله معكم. تفوه... تفوه... تفوه عليّ أيضا.

ثمّ توجّه إلى الكهرمانة:

-هيّا أيّتها الكهرمانة الوسخة. أنت كلبة مثلها... أرجعي لي مالي.

اتّسعت عيناها بفزع لا مثيل له:

-هل... ؟. هل؟. هل أزعجتك تلك؟. استغفر الله. ماذا قالت لتثور ثائرتك بهذه الكيفية يا سيّدي. انس الأمر. بالغرفة الموالية غيرها. أجمل جميلات بابل.

-ت... ت... تقوليتها دون حياء. تفوه... عا... ماذا أقول... لعنك الله. تبدو الكلمات عاجزة عن التّعبير، عن الإحساس.

وهو يرمي عقب السّيجارة:

-وجوه ضاجّة بالقذارة. ووجهي منها. شعوب لا تفكّر إلاّ بجانبها الحيواني. النّصف الثّاني من جسدي هو المفكّر. كم أنا كريه وبغيض مثل الأغلبيّة هنا.

انحنى بجذعه نحو درّج أمامها. قبض على حزمة من الأوراق

الماليـة مـن صنـف الـدّولار. دون أن يكـفّ عـن التّوبيـخ.

– مـن أجـل هـذا تبيعـون العـرض والأرض والذّمـم؟. مـن أجـل هـذا تسـتقوون عـلى الضّعيـف كسـولافة؟. بهـذه القـذارة يشـتري مـن مثـلي حيوانيتـه؟. ويبيـع إنسـانيته؟.

اتّسـعت عينـا المـرأة بفـزع لا مثيـل لـه. سـولافة التـي عانـت الشّـقاء صنوفـا وأنواعـا، لم يبـق بدمهـا مكانـا لتدفّـق الأدرينالـين ولا لرقصـات الخـوف بفرائـص جسـدها. بطـش الكهرمانـة لم يعـد يعنيهـا. لم تعـد تعمـل لغضبهـا حسـابا. تلاشـى الخـوف والتوتّـر نهائيـا. كلّ مـا يشـغلها سـبيلا للخـروج مـن هـذا المـكان العفـن. وضعـت رأسـها بـين كفّيهـا وانحنـت عـلى ركبتيهـا مطرقـة لسـاعة زمـن. نفسـها تـزداد تيهـا في فيـافي الحـيرة وتـزداد تورّمـا مـن سـياط الحـزن. يخبـو الشّـفق في عينيهـا بصـورة مخيفـة ومرعبـة وفيهـا الكثـير مـن الضّيـاع عـن اللّحظـة.

أكملـت مسـاءها شـاردة وعيناهـا تـدوران في الفـراغ. فـوق قلبهـا ربـض حـزن عميـق يصعـب وصفـه. لكـن لا تـرد لحصنهـا أن يتهـدّم ولمعنوياتهـا أن تهـزم أمـام هـذا الحـظّ العاثـر.

أمّـا الكهرمانـة فأكملـت مسـاءها هائجـة، مائجـة. مـن شـدّة غضبهـا شـبكة التّجاعيـد تتكثّـف عـلى جبينهـا وحـول فمهـا ووجنتيهـا. عيناهـا

تقدحـان شررا. بانتظـار أن يفتـح بـاب غرفـة سـولافة لتشـبعها ضربـا وتعنيفـا.

السـماء فـوق الكـوخ ترعـد وتومـض بالـبروق المتسـلّلة مـن النّوافـذ منـذرة بمطـر غزيـر.

مـرّ عـلى تلـك الحادثـة أسـبوع ونصـف. كلّ يـوم تدخـل الحـمّام. تستحم و تتبرج، و تجهّـز نفسـها مجـبرة لحيـوان مفـترس. يـأكل بنهـم مـن لحمهـا ثـمّ يبصـق عليهـا ويخـرج وتبقـى هـي متكوّمـة عـلى نفسـها كقطّـة جريحـة تبكـي وتـذرف الدّمـع دمـا مـن قلبهـا.

في ليلـة ماطـرة بـاردة، سـمعت دقّـات السّـاعة تعلـن عـن الوقـت. اللّيـل لا يـزال بمنتصفـه. الفجـر الـذي تنتظـره سـولافة لا يـزال بعيـدا. دفنـت نظراتهـا السّـاهمة الحيـارى في جـوف ظلمـة اللّيـل التـي تشـقّها مـن حـين لآخـر شـآبيب خاطفـة مـن الـبروق.

الذّكريـات التـي لا تنفـكّ تذهـب ثـم تعـود تطـرق بقـوّة عقـل باطنهـا. تذكـر سـولافة رحلتهـا خـارج العـراق تاركـة وراءهـا علامـات اسـتفهام كـبرى. كيـف خرجـت مـن بيـت الكهرمانـة؟. وكيـف اجتـازت الحـدود العراقيـة؟. ومـع مـن؟.

قائلة في صوت خفيض لصورتها أمام مرآة سيارتها التي تقودها إلى غير وجهة في يوم أحد آحاد شهر نوفمبر.

– حتّى أنا لا أصدّق أنّ الرّجل الذي اقتحم غرفتي مساء وخرج ضاجا بغضبه، هو نفسه الرّجل الذي ساعدني على الهروب من هناك.

كلّ ما تذكره أنّها ذلك المساء وبعد أن خرج الرجل من عندها هائجا كجمل. استحمت بماء روحها الملوّث بالماسي والقلق. تنشّفت بدفتر أيّامها من بلل الجراح. منصتة إلى رعود السّماء الباكية بشفق محمّر خبا شيئا فشيء في مقلتيها.

بعد أسبوع ونصف من حادثة الكهرمانة والزبون الغاضب كان يوم سبت. العاشرة والنّصف ليلا. كان المطر يهطل غزيرا وبيت الكهرمانة خاليا من زبائنها. استسلمت مزقة من الخارطة المجروحة للنّوم رغم صوت الانفجاريات الآتية من المدن والقرى القريبة... هذه الأصوات لا تمنع النّوم عن نسرين التي تكوّمت في سريرها.

شخيرها معزوفة نشاز مزعجة حتّى لقطّتها التي هربت من غرفتها وتسلّلت إلى باب غرفتها المواربة قصدا لتراقب منه حركة غريمتها الكهرمانة. فقد عزمت على الهروب إلى أرض الله الواسعة متّبعة قدرها. وكأنّ قدرها ضاحك تلك اللّيلة.

سمعت طرقات خفيفة على نافذتها من الخارج. خافت وجمدت في مكانها. لكن الطّرقات تبعها صوت خفيف ومضطرب:

-سولافة أنا الرّجل الذي جاءك منذ أكثر من أسبوع وخرج غاضبا. أتذكرينني؟.

ارتعبت سولافة. جفّ الدّم في عروقها. سكنت حركتها كجثّة هامدة.

تابع الصّوت:

-سولافة لا تخافي منّي. عليك الأمان. جئت فقط لأساعدك على الهرب. هيّا أسرعي. ليس لدي الكثير من الوقت. اقفزي من النّافذة. هيّا أعدك. أنت حرام علي كأختي أو أمّي.

تنهّدت سولافة والسيّارة تنعطف إلى يمينها باحد شوارع نيويورك المكتظّة. كانت تتحدّث إلى الأشجار الهاربة على ضفّتي الشّارع . متكلمة مع نفسها بصوت مسموع:

- قفزت من النّافذة لأقفز داخل شاحنة تحمل تبنا وماعزا باتجاه الحدود التّركية. لم أنزل منها إلّا بعد يومين كاملين. كنت كلّما أجوع أو أعطش أمسك بضرع عنز وأشخب حليبها في فمي. أمّا إن احتجت إلى

حمّام فلا فرق بيني والماعز في الاستجابة الآلية للحاجة الفيزيولوجية. على الحدود السّورية التّركية استضافني بيت صديق سائق الشّاحنة الكرديّ في بلدة رأس العين. استقبلتني ابنته شزرا خوفا من أن يتّخذني والدها زوجة رابعة بعد طلاقه لزوجته الثّالثة. علمت أنّه كلّما دخلت سيّدة جديدة البيت تذيق الطّفلة وأختها أصنافا من المرارة.

بعد مدّة يعلم الأب فيطلّقها ثمّ يتزوّج أخرى. لذلك ملّت نيفان زيجات أبيها المتعدّدة وصارت تخافها.

تفحّصتني من القدمين إلى الرّأس قائلة بوقاحة شديدة:

– تفوح منك رائحة التّبن وبعر الماعز.

لم أجبها لأنّ سائق الشّاحنة صديق والدها أعطاني فكرة عنها عند دخولنا بلدة رأس العين. لم ألمها وأنا سولافة التي عرفت كلّ العزّة والكرامة في بيت أبي الذي كان يدلّلني كثيرا. أتعلمون لماذا ؟. لأنّي بدوري كنت مشمئزّة من هيئتي ورائحتي التي أشعرتني بالغثيان ذلك اليوم.

وضعت نيفان أمامي صحن الدّولما دون أن تنزل نظرتها المحقّرة

عنّـي. ثـمّ رفعـت جذعهـا واقفـة وهـي تغلـق أنفهـا بيدهـا اليـسرى متأفّفـة. قفلـت راجعـة إلى المطبـخ لتتركنـي في غبـن شـديد وتسـونامي مـن المهانـة والخيبـة والإحبـاط والغضـب. أخـذت نفسـا عميقـا ونهضـت متأبّطـة حـزني المتناسـل بوفـرة. حزينـة حـدّ المـرارة و بي علـم أن أنسـجة روحـي قـد تفتّقـت والغمامـة السّـوداء تسـتعمر رأسي.

الفصل الثّالث

من رأس العين إلى نيويورك

بين جفني عينيها السوداويين ماستان راجفتان تتلألآن. هي من بنات المستحيل. جسدها ثقبته الأحزان. روحها مترعة على مصراعيها لمناجل حصاد الأيّام. كلّما أشعلت قنديلا في كهوف وزوايا ذاتها سقط وانكسر ومن جديد. تعثّرت بظلمة تتّكئ على الفراغ.

في عين عاصفة السّؤال لهثت المعانى من كثرة تهرّبها من الإجابة. تتلو عليها قصّة نبع الدّمع المتجدّد. كلّ ليلة تخبز الآلام. على مخدّة نومها جلست غير مبالية تفرك الألم وتلمّعه. تمام العاشرة ليلا. فنجان قهوتها السّوداء بين يديها. بين الرّشفة والأخرى تحاول ترتيب فوضاها الدّاخلية. لأنّها تخاف الظّلام ولا يمكنها النّوم. لم ترغب في شيء أكثر من السّلام الدّاخلي. حقل ذكرياتها الممتلئ بالجرار والأدوات الفخارية، وهي الآسنة في قاع بئر سحيقة. تنتظر من

ينتشلها أو يلتقطها. على الرغم من كلّ شيء ثمّة نبض داخل نبضها يربطها بالحياة.

يومها الخامس في رأس العين كان ثقيلا جدا. خاصّة وأنّ ابنة المضيف لا تترك فرصة لمضايقتها خوفا من أن تكون زوجة جديدة لأبيها.

في الصّباح جلبت لها فطورها. وضعته أمامها وهي تنظر في وجهها بوقاحة كبيرة وقبل أن تغادر انحنت بجذعها وراء رأسها وقالت هامسة:

-لا أحد يصنع من المعدن الرّخيص ذهبا ولا تتّخذ من تمساح صديقا وإن سالت دموعه.

كزّت سولافة على أسنانها حنقا وألما. عيناها مغرورقتان، لكن الوقت ليس بوقت غضب وبكاء. عليها أن تضع همومها في جيبها المثقوب وأن تترك أحزانها نائمة في إحدى غرف قلبها المظلمة. عليها تحدّي الحقيقة واستجداء صلابتها كي لا تخذلها.

هبّت واقفة فجأة. دخلت الحمّام واغتسلت. وضعت المنشفة على دعامة السّرير. تناولت قطعة خبز مع مثلّث صغير من الجبن.

وضعت جلبابا أسود وغطاء من نفس اللّون على رأسها. كانت قد حصلت عليها هدية من صاحب البيت عندما لاحظ أنّ ابنته لم تعرها سوى بدلة واحدة يوم قدومها. وضعت بعض الزّاد الذي جاءتها به الفتاة مع قارورة ماء بسعة لترين في حقيبتها القماشية المفتوحة. ثمّ وقفت أمام النّافذة التي تكاد تنفصل عن مفاصلها تستطلع الحركة خارج البيت. كفّها اليمنى تضغط على يدها اليسرى وهي مشغولة بشيء ما. بأمر جلل. بعد ساعات ستغادر حسب الاتفاق مع صاحب البيت إلى وجهة غير معلومة في إطار تأمين هروبها من الحدود السّورية إلى داخل تركيا ثم إلى اليونان.

لم يمض وقت طويل بعد الغروب حتّى سمعت طرقا خفيفا على باب غرفتها. هي الشّارة المتّفق عليها مع صاحب البيت. أدركت أنّ لحظة ركوبها المجهول مرّة أخرى قد حانت. قرأت سورة الإخلاص ثلاث مرّات. متمنيّة السّلامة والسّلام الدّاخلي وتلت الشّهادتين في سرّها تحسّبا لاغتيال مفاجئ أو للتّعرض لإحدى الخيانات من أحد المؤتمنين على حياتها. لكن على كلّ حال لن يكون صاحب البيت منهم فقد أثبت شهامته. إنّه على درجة عالية من النّبل والرّجولة والطّيبة. طريقها لن تكون سهلة. على العكس فهي محفوفة بالمخاطر ومليئة بالصّعاب.

لبســت عبــاءة مضيّفهــا كــما كان الاتّفــاق وانســحبت مــن غرفتهــا ودلفــت إلى خــارج البيــت في خفّــة. كان الهــواء بــاردا إلى حــدّ مــا. السّــماء قــد غطّتهــا ســحابة ســوداء.

في الســيّارة تظاهــرت بالنّعــاس وأســندت رأســها عــلى الكــرسيّ في وضعيــة اســترخاء. بعــد أن غطّــت وجههــا بالشّــماغ المخطّــط بالأبيــض والأســود.

طريقهــا كانــت مرهقــة. ســاد الصّمــت الرّهيــب بــين الاثنــين ولم تســمع إلاّ نحنحتــه مــن حــين لآخــر. توغّــلا لمســافة تقــدّر زمنيّــا بســاعتين قبــل أن تســمعه يكلّمها:

-اســمعي يابنتــي طريقــك كحياتــك التــي علمتهــا منــك لــن تكــون ســهلة. الطّــارئ تحسّــبي لــه دائــما. لا أضمــن النّوايــا ولا المجهــول.

ثــم أمرهــا أن تأخــذ مــن يــده لفافــة أخرجهــا مــن صنــدوق سـيّارته قائــلا:

-نحــن الآن داخــل تركيــا في بلــدة محاذيــة لســورية. في هــذه اللّفافــة مســدّس ليــس مــن الطّــراز الحديــث. يعــود لوالــدي في شــبابه. لــولا أنّــك بمكانــة ابنتــي مــا ســلّمتك إيّــاه. لكنّــه ســيحميك عــلى كلّ حال. ســيعطيك

فرصة الدّفاع المتكافئ عن نفسك بعض الشّيء . في اللّفافة أيضا مبلغا معتبرا من المال يؤمّن لك الرّحلة البحرية السرّية إلى اليونان وهناك لك القرار. إمّا الاستقرار أو الهجرة إلى وجهة أخرى. أناشدك بالله إن كتب الله لك السّلامة وطاب مقامك في بلد، وحسنت حالك أن تهاتفني لتطمئنني عنك. سأصلّي يوميّا من أجل أن يحفظك الخالق. في اليونان ستجدين الكثير من المهاجرين العراقيين واللاّجئين السوريين .

تسلّمت اللّفافة شاكرة:

-لن أنسى جميل صنيعك وشهامتك يا عم... حتما إن وصلت سالمة إلى وجهتي المجهولة سأهاتفك.

رد بصوت حازم:

-بعد ساعة أخرى تقريبا سنصل. سيكون بانتظارنا ربّان أحد سفن الملاحة بين تركيا واليونان. السّفينة ليست للركّاب. هي معدّة للبضائع.

صمت ثوان مرّر فيها يده على شاربه ولحيته وأردف مضفيا شيئا من الفكاهة:

– يبدو أنّ قدرك ربط بالحيوانات. السّفينة تشحن الماعز الدّمشقي المهرّب من سورية إلى تركيّة ليباع في اليونان، ثروة كبيرة تدرّ عليه من هذه التّجارة. لكن الربان ليس سيئا. خبرته في أكثر من موقف. كان يعمل في العراق قبل الاحتلال وثروته جمعها من هناك. سأطلب منه أن يسلّمك مبلغا من المال سأرجعه له في ما بعد.

بصوت أعلى من أيّ مرّة مضت:

–بالسفينة لن يكون وحده ثمّة الكثير من العمّال وأنت شابّة وجميلة. حاولي أن تبقي متنكّرة بهيئة رجل ملثّم وبعيدة عنهم. حتّى لا يكتشف أمرك ولا تتعرّضي للمضايقات. ستلزمين المقصورة التي ستخصّص لك إلى حين وصولك لليونان.

ثم سلمها كيسا:

–في هذا الكيس جبن وزبدة وحليب وماء وخبز وبعض التّمر يكفيك في حالات الطّوارئ. الرّجل لن يقصّر وسيأتيك بطعامك. لكن إذا تعذّر عليه ذلك من أجل سلامتك كي لا تكتشفي من العمّال لن تبقي جائعة. فهو كاف لمثل هذه الظّروف.

تسلّمت الكيس بامتنان مرّة أخرى:

-شكرا لك... شكرا من القلب.

-واجبي ابنتي لا تشكريني المهمّ يكتب لك الله السّلامة إن شاء وقدّر. هو كريم معنا في أحلك الأوقات مهما انسلخنا من آدميتنا ننتظر رحمته. الله رحيم كريم.

أرجعت رأسها للخلف مغمضة عينيها. غطّت وجهها من جديد وعادت إلى وضعية جلستها المرتخية على الكرسيّ متظاهرة بالنّوم. مرّة أخرى ساد الصّمت في ما تبقّى من الطّريق عدا بعض أصوات الطّيور اللّيلية من حين لآخر

بعد ساعة والرّبع تقريبا. لم تكفّ العتمة عن سربلتها السّماء. توقّفت السيّارة وسمعته يقول:

-سولافة بابنتي نحن الآن بالميناء أمام صندوق البضائع المكشوف المعدّ للماشية كي لا تختنق. أمام الصّندوق الرّجل الذي ننتظر والحمد لله. إنّه يتظاهر بتفقّد الماعز الآن وينتظرك. حالما تصلين لا تكلّميه كي لا يكتشف أحدهم صوتك الأنثوي. عندما يشير إليك بالصّعود إلى الصّندوق افعلي بسرعة ودون تردّد. بالسّفينة سيرشدك إلى مقصورته التي سيعيرها إليك ويأخذ لنفسه مقصورة أخرى. لسبب وحيد أنّ مقصورته لا يدخلها أحد. عندما تصلين إلى اليونان ستخرجين من

السّـفينة مثلـما دخلـت إليهـا.

قالت:

-في الصّندوق؟.

رد حازما:

-نعـم وينزلونـك في طريـق غـير مكشـوف. مـن هنـاك ستتسـلّلين إلى المدينـة وتصبحـين واحـدة مـن السـكّان غـير الشّرعيـين. لـن يرتابـوا لأمرك كثـيرا. فالسّـوريون هنـاك أكثر مـن اليونانيـين إذا تأمّلـت المارّين بالشّـوارع. جميعهـم بـلا وثائـق ولا جـوازات سـفر. شيء واحـد إذا تعرّضـت للتّفتيـش حـاولي «التّخلّـص مـن السّـلاح بطريقـة ذكيّـة وبالكثـير مـن الحيطـة.

لم تكن قد تحرّكت من موضعها حين أردف:

-لا تنـسي مـا قلتـه لـك أن تطمئنينـي عنـك. إن كتـب إليـك الله السّـلامة. هيّـا... الرّجـل يلتفـت إلينـا مـن حـين لآخـر. يبـدو أنّـه جاهـز لاسـتقبالك. هيّـا قبـل أن ينبلـج الفجـر. إنّـه والصّنـدوق كـما ترين في زاويـة معتمـة مـن المينـاء.

أبقتـه بخـير وخرجـت مـن السـيّارة بخفّـة. لكـنّ روحهـا تتـألمّ وكأنّهـا تسـير عـلى زجـاج مكسـور. لتجـد رجـلا ستّينيا أو يزيـد. ضخـم البنيـة.

شعره طويل مسدل أسفل كتفيه. أمّا لحيته أسفل شاربه الكثيف فمحلوقة بعناية.

كان الطّقس قارص البرودة. كتمت أنفاسها وراء لثامها كي لا تسعل. قال الرّجل بعد أن التفت يمنة ويسرى ولاحت على وجهه ابتسامة عريضة:

- هيّا ندخل إلى الصّندوق لنتظاهر بتفقّد الماشية معا وسأنزل لوحدي تمويها.

ضخّ الأدرينالين في جسدها بقوّة لكنّها انصاعت لأوامره. صعدت بخفّة إلى الصّندوق رغم غبنها الشّديد الذي أحسّت به. لكن ذاك قدرها عليها أن تسير به إلى الآخر. فوق رأسها ربّ يحميها. ضج الماعز بالصّياح والحركة فقال بلهجة عربية مرّة أخرى:

-جميل هذا ما نريد. سأنزل الآن وأنت ستتخفي وسط الماشية. كوني ملاصقة لهم عند رفع الصّندوق للسّفينة. لا نريد أن نكتشف ونتعرّض لسين وجيم.

بصوت راجف:

-نعم نعم.

صعدا بسرعة ثمّ بنفس الخفّة نزل وحده. تاركا إيّاها وسط ما لا يقلّ عن خمسة مئة رأس من الماعز. متراصّة على ثلاثة طوابق داخل الصّندوق.

في الوهلة الأولى أحسّت بالاختناق من رائحة بعر وعرق الماعز الكريه. ما هي إلاّ دقائق حتّى أحسّت بأنّها ترفع إلى عنان السّماء وأحسّت مرّة أخرى بأنّها تنزل. تكثّفت جلبة وحركة الماشية داخل الصّندوق. ازداد صياحها فانكمشت في زاوية وراء عنز على وشك الولادة.

لكن العملية لم تكن سهلة بالنّسبة إليها. فقد سقطت عليها العنز الموجوعة بعد أن داست أصابعها. فآلمتها. لكن صرختها كانت مكتومة بيدها. عرفت أنّ الارتجاج ناجم عن وضع الصّندوق داخل السّفينة. حمدت الله على هذه الخطوة الأولى من تأمين سلامتها.

بعد نصف ساعة تصاعد صوت أزيز السّفينة وتحرّكت ببطء من الميناء. ثمّ انطلقت تمخر عباب البحر في سرعة جنونية.

ودّعت سولافة المكان بعينيها من جانبي الصّندوق المشبّكين. شيء ما لفت انتباهها منذ أن غادرت بلدة رأس العين.

هنـاك حمامـة تـدور فـوق رأسـها وترفـرف بجناحيهـا كلّـما اقتربـت منهـا. أتراهـا كانـت تحـاول لفـت انتباههـا ؟. أتراهـا هـي أيضـا هاربـة مـن ظلـم ؟. أتراهـا فقـدت السّـلام الدّاخـلي؟. أتراهـا خائفـة ومذعـورة مثلهـا وهاربـة مـن أراض انعـدم فيهـا العيـش الآمـن الهنـيء؟.

بعيـدا عـن الصّنـدوق لاح لهـا بعـض العملـة مـن الجنسـين. هنـاك كتلـة آدميـة تتحـرّك وتقـترب مـن الصّنـدوق. مـن كلّ فتحـة بجهتـي اليمـين والشّـمال تصـبّ شـعيرا في آنيـة ملتصقـة بالجـدار وتحركهـا بعصـا كـي تصـل إلى كلّ الماشـية. تفعـل الـشّيء نفسـه في الطّوابـق الثّـلاث بعـد أن تصعـد عـلى درج متحـرّك. ثـمّ تتحـرّك مغـادرة بمؤخـرة رجراجـة. بعـد قليـل رجعـت وبيدهـا خرطومـا. صبّـت المـاء في قنـاة فـوق قنـاة العلـف في كلّ طابـق وفي كلّ جهـة مـن الصّنـدوق وتحرّكـت كالعـادة رجراجـة كأنّهـا مـن صنـف الدّببـة.

جمـدت في مكانهـا وجمـد الـدّم في عروقهـا. صـارت كورقـة جفّـت مـن مائهـا خاصّـة عندمـا مـرّت إلى جانبهـا وسـعلت. ذعـرت مـن اكتشـاف أمرهـا. لكـن الكتلـة الرجراجـة ودون أن تنظـر إليهـا قالـت لهـا:

– من المريع أن يخذل أحدهم القدر. ليس ممتعا أن تموتي هنا .

ثم دسّت كيسا بلاستيكيا قائلة:

– تناوليه بسرعة قبل أن يصبح في بطن عنز. عندما تتلقّين رسالة من ذلك الهاتف تهيّئي للخروج واتبعيني بسرعة سأرشدك إلى مقصورتك.

هذا روّع سولافة على الرغم من معرفتها أنّ المرأة مرسلة من قبل الربّان. فقد تخدعها وتبيعها إلى أيّ جهة مستفيدة. شعرت أنّها معلّقة بمسمار من شدّة خوفها ومن تضاءل فرص نجاتها. من فمها الملجم بأقفال سجن الأسى. ترغب في التحليق كتلك الحمامة الحرّة، الهاربة من أسر حماماتي شهوانيّ.

حوالي السّادسة صباحا أحسّت وكأنّ السّفينة قد أقفرت إلاّ منها والماشية. لاحركة، ولا ضجيج، إلاّ نشيد القلق الضاجّ داخلها. همهمت بصوت مسموع حتّى كادت تفضح أمر اختبائها:

–ما أبطأ خطى الأمل.

السّماء المعتمة تعكس نفسيتها. تحاكي سحابة رصاصية بعينيها اللّتين تفيضان عذابا كمحيّاها. يتلاطمها الحزن في لجّة الأسى. حتّى رغوة الأمواج الهائلة التي تصارع محرّك السّفينة لا. من يحدّق في حدقتي عينيها سيقتل لا محالة في بحرهما الشّديد الأهوال، الغائر بالأتعاب. سيحرق بلهيبهما الحسرة وسيغرق.

ردّدت بصوت خافت وهي تعلم أنّ لا أحد سيسمعها:

«ما أعرف ما أريده يا الله؟.

وعن ماذا أبحث ليلا نهارا؟.

وعن ماذا تبحث عيناي المتعبتان؟.

ولماذا هذا القلب حزين؟.

أهرب من جمع الصّحبة

عيناي تغرقان في الظّلمات

أستمع إلى المريض يئنّ في قلبي».

لم تكمل ترديد القصيدة لأنّ شارة الهاتف وصلتها. لملمت شتاتها وانتظرت قدوم الكتلة المترجرجة. لاح طيفها يتحرّك، ولاح معها شبح الموت الذي ربّما هو على بعد أمتار منها. لكن سرعان ما استغفرت ربّها لتذكّرها قول الشّاعر بيلي كولينز:

«كلّ يوم هو هديّة

توضع بطريقة غامضة في يدك المستيقظة

أو على جبينك قبل أن تفتح عينيكِ»

همهمت:

-يا الله كيف يمكن تكثيف الزّمن بالمونتاج لحذف كلّ صورة بشعة فيه وكلّ مشهد غير مرغوب وكلّ صوت لا نحبّ سماعه ؟. هل يمكن صنصرة مخزون الذّاكرة أيضا لنحتفي إلاّ بالجميل والمفرح والمبهج؟.

لم يخرجها من عصف الأفكار والمشاعر إلاّ صوت الكتلة المتحرّكة وهي تفتح شبّاكا صغيرا من ناحية مكان جلوسها:

-هيّا انزلي أم أحببت بعر الماعز وبوله.

قفزت بسرعة وسارت مع الكتلة المترجرجة وظلال المعنى ترخي سدولها على محيّاها. في طريقها إلى المقصورة لمحت الكلّ بالمطعم يتناولون طعام الإفطار فلم ينتبهوا إليها. نزلتا درجا وسارتا برواق ثم توقفت بها أمام باب. بعد أن فتحته سلمتها المفتاح قائلة:

- أغلقي على نفسك. لا تثقي بأحد في البحر.

دلفت إلى الدّاخل بعد أن أغلقت الباب لتجد نفسها أمام لوحة لفانجوج، بقيت تتأمّل الدقّة، تمازج اللّونين الأصفر والأخضر الذي يفسّر حالة اليأس والأمل داخلها.

بالمقصورة أيضا سرير وخزانة صغيرة فتحتها للاستطلاع. فوجئت

ببذلتين نسائيتين للخروج. البدلة الأولى فستان على الموضة الأوروبيّة. الثّانية سروال وقميص وجاكيت . إضافة إلى بذله نوم ومنشفة حمّام ومنشفتان واحدة للوجه وأخرى للرّجلين.

كما وجدت حقيبة سفر كبيرة وحقيبة يد جلدية سوداء وحقيبة حمّام بها صابونا وزجاجة عطر وأدوات زينة للتبرّج

ووجدت بعض الزّاد فاستحمّت وتغذّت وأوت إلى الفراش لتأخذ قسطا من الرّاحة.

عند انتهاء الرّحلة البحرية وأوّل ما وطئت رجلاها اليابسة. فوجئت بتجمهر احتفاليّ مبهج وكبير. أطفال يرقصون وصبايا متبرّجات وكعك وضحك. كان اليوم الأوّل من السّنة الميلادية. تقدّمت بريبة من الجمع الغفير ومن معزوفات القهقهات الصّافية المقرقرة من كلّ اتجاه. لمحت توجسّها إحدى العجائز. كانت جميلة بالرّغم من تجعّد جبينها ومحيط عينيها وفمها. صفاء قلبها منعكس على سحنتها. خاطبتها:

-خذي قطعة من الكعكة يا ابنتي... هيّا خذيها.

تردّدت سولافة.

فشجعتها حاسمة:

-هيّـا خذيهـا... يجـب أن تأخذيهـا... اختـبري حظّـك هـذه السّـنة الجديـدة. لعلّنـا نكـون طالـع سـعد عليـك. الكعكـة شـهّية.

ابتسـمت سـولافة وهـي تتنـاول القطعـة وتهـمّ بوضعهـا في حقيبتهـا لأنّهـا ليسـت جائعـة. أكلـت قبـل قليـل. قبـل أن تترجّـل مـن السّـفينة.

صاحت بها العجوز:

-قلت لك كليها. العادة جرت هكذا.

قضمـة أولى... ثانيـة... آه يبـدو أنّ الكعكـة شـهيّة. لا تـرد أن تتركها. القضمـة الثّالثـة تأوّهت سـولافة:

-أي... أي... أسناني... تؤلمني... ما هذا المزاح يا خالتي:

أحسّـت بالغيـض وأنّهـا كانـت مغفّلـة. نظـرت إلى العجـوز شـزرا. لكـن العجـوز أتتهـا فاتحـة ذراعيهـا وعانقتهـا مهنّئـة:

-مبـارك لـك يـا ابنتـي القطعـة النّقديـة. مبـارك لـك العـام الجديـد. سـتكون سـنة السّـعد بالنسـبة لـك بـإذن الله. هـذه عـادة الأجـداد اليونانيـين منـذ القـدم. مـن عاداتنـا المتنوّعـة أن نعمـد كلّ أوّل ينايـر مـن كلّ عـام إلى تجهيـز كعكـة كبـيرة شـهيّة بعـد أن نضـع فيهـا قطعـة نقديّـة.

نقسمها إلى عدّة قطع ومن يقضم القطعة النّقدية يكون عامه سعيدا، وقد لاحظت شرودك وضياعك فأردت أن أتيك بفأل خير وكأنّني أحسست بأنّ قطعة النّقود ستكون لك. مبارك لك.

ابتسمت سولافة شاكرة العجوز الطّيبة:

-شكرا لك خالتي... حقّا أحتاج هذا الدّعم المعنويّ.

ثمّ حيّتها بخفر وسارت في طريقها وهي تكمل قضم قطعة الكعكة الشهيّة.

كانت حادثة القطعة النّقدية المحشوّة في قطعة الكعك قد شحنتها بموجات الأمل وبالطّاقة الايجابيّة. قالت لها العجوز أنّ أيّامها ستتبدّل وستكون سعيدة وهذا ما تحتاجه. قصدت أحد الفنادق لتستريح من عناء السّفر ومن دوّار البحر الذي كثيرا ما كان يصيبها بالغثيان. هي بخير الآن.. في فندق وعلى سرير ولها الأكل والماء، وبالنّهار ستستطلع مدينة نافليو التي بدت لها مريحة.

بعد عدّة أيّام وفي يوم سبت. وعلى الرغم مما وهبتها إيّاه الأقدار من المعونة. هاهي جالسة وحيدة شاردة وذاهلة على كرسيّ خشبيّ بحديقة في مدينة نافليو. مدينة لا تفقه منها سوى ألوان جدرانها

المزركشة وأسطحها الهرميّة وكثرة ورودها والواجهة البحرية الوضّاءة بألوان زاهية في اللّيل. نفسها تموج غربة والشّارع على يمينها يموج بالغرباء. تتأمّل روعة برج السّاعة والعمارة اليونانية القديمة بتقدير كبير للأيادي التي شيّدتها والعقول التي هندستها. ميناءها البحري عريق جدّا. هو موجود منذ العصور الوسطى لذلك فهي مدينة استثنائية وهي محظوظة بنزولها فيها عند قدومها.

تعوّدت منذ نزولها من السّفينة قبل أسبوع ألاّ تبتعد كثيرا عن الفندق الذي نزلت به كي لا تضيع .

تجلس كلّ يوم من الصّبح إلى وقت العشاء على نفس الكرسيّ تقريبا. لا تكلّم أحدا ولا يكلّمها أحد حتّى خيّل إليها أنّها نسيت الكلام. عملية التّواصل الوحيدة كانت بعض الابتسامات المحترزة لأعوان الاستقبال في الفندق أو لبعض الأطفال الصّغار بالحديقة العامّة.

تلمّ بها ذكريات عزيزة من ماضيها حينا بعد حين. الجامعة وحيّها وصديقاتها ودحا وليان وغيرهما. ياسر

وبعشيقة ولالش. ثم يداهمها شريط مظلم من حياتها. شريط من الزّمن الأسود يلاحقها. عائلتها وأسماء الموتى الذين قضوا

في الاجتياح ودموع الأمّهات الثّكالى والأرامل وسجن أبو غريب وكيف هامت على وجهها في البراري . ووكر الدواعش وبيت نسرين الكهرمانة. الهروب في شاحنة للماعز إلى بيت الكرديّ النّبيل على الحدود السّورية التركية. شحنها مع الماشية وتأمين مقصورة لها لتغادرها وهي ترتدي لباسا أوروبيا على الموضة وتحمل المزيد مع بعض أدوات الزينة، وبعض الدّولارات التي وفّرها لها الكرديّ النّبيل وربّان السّفينة الشّهم. الذي أرشدها قبل خروجها من السّفينة إلى الفندق لأنّ صاحبه صديقه. أشار عليها أن تتّصل بسيّدة فرنسية تعيش في اليونان منذ صباها. تدير جمعية لغوث المهاجرين. لأنّها ستساعدها في استخراج أوراق ثبوتية وتوفّر لها جواز سفر ليكون يسيرا عليها العيش كمهاجرة.

رغم تلاطم الأفكار داخلها لم تستسلم للأمواج المعتمة وهي التي واجهت قدرها المعتم بكلّ شجاعة واستبسال.

خاضت أمر الكفاح المستبسل في حياتها. لم تدلّل دائما على أنّها عاجزة. ربّما كان دافعها حبّ البقاء. ربّما قلبها الشّجريّ أو إرادة تحدّي الصّعاب التي عرفت بها منذ كانت طفلة تلعب مع أخيها المأسوف على شبابه سمرقند ومع صديقتها وابنة خالتها نيفلين. هي

الآن أشدّ أمانا ممّا كان. لها غرفة تؤويها. لا أحد يعرفها. لها سرير وثير وطعام وماء ينعش جلدها كلّما أرادت الاستحمام صباحا قبل خروجها وليلا قبل النّوم. آه ليت العدل يحدث. ليت الحروب تنتفي من العالم. ليتها في بيتها الآن. ليت عائلتها لم تقتل. ليت العراق لم يحتلّ ولم تتقاذفه التيّارات الهدّامة والإرهاب ولم تعصف به المخابرات العالميّة.

لم تكن بقية البلدان العربيّة أكثر حظّا من بلدها بعد ما عرف بالرّبيع العربيّ. المواطن هناك فقد حقّه في المواطنة باسم الديمقراطيّة الزّائفة. يعيش الجوع والعطالة. يموت غرقا في البحار أو انتحارا بسكب البنزين وإضرام النّار في جسده أو بالسّقوط في الوديان والبالوعات المهملة بلا صيانة لأنّ الدّولة غائبة.

في إحدى اللّيالي وفي الفندق، حاولت العثور على كهوف دافئة من ماضيها السّعيد لتنم في طمأنينة وتهنأ بنوم هادئ عميق.

صباحا لبست بدلة وردية أظهرت جمال بشرتها وبهاء عينيها الواسعتين وشعرها المسترسل في فوضوية جميلة. كانت زخات المطر تنزل محدثة إيقاعا خفيفا وجميلا عندما خطت خطوتها الأولى أمام الفندق. كانت على موعد مع السيّدة رئيسة جمعية غوث المهاجرين.

استقلّت سيّارة تاكسي إلى باب مقرّ الجمعية. هناك سلّمتها المرأة التي كانت على اتفاق مسبق مع الربّان أوراقا ثبوتية وجواز سفر حسب البيانات التي سجّلتها على ورق علبة حليب.

كانت السيّدة أكثر كرما معها عندما علمت أنّها جامعية وتتقن اللّغتين الانجليزية والعربية. مكّنتها من شغل داخل الجمعية للاهتمام بالجالية العربية. خاصّة العراقية والسوريّة وبعض اليمنيين. مع راتب محترم ومكّنتها من الإقامة في شقّة صغيرة في عمارة تابعة للجمعيّة بسعر رمزيّ. سعدت لذلك وأقرّت عينا بكرم المرأة وطيبتها. صارت تتنقّل في المدينة بحرّية بفضل الأوراق دون خوف من الأمن وكوّنت بعض الصّداقات بفضل الجمعيّة.

في شهر مارس من السنّة الموالية ترأّست مؤتمر اللاّجئات وقد استعدّت له. لم يكن الأمر سهلا. لكنّها نجحت في جلب الانتباه إلى كلامها الموزون وثقافتها الواسعة ورشاقة حركتها. تمكّنت من ربط عديد الصّداقات. كان من بين صداقاتها الجديدة ابنة أحد المسئولين السّابقين في الكونغرس الأمريكيّ التي كانت تدرس هناك. تعمّقت صداقتهما سريعا حتّى كانتا تلتقيان مرّة في الأسبوع وتقصدان منتجعا فاخرا على ساحل مدينة فيسكاردو الجميلة وتقضيان عطلتهما هناك.

تتمتّعان بجولة مذهلة في قوارب الصّيد وبمنظر اليخوت الكبيرة الرّاسية في الميناء وتأمّل معمار المدينة الفريد الجمال. تحبّ شواطئها وخلجانها المشمسة.

دعتها لزيارتها بأمريكا في الصّيف لكن سولافة اعتذرت دون أن توضّح السّبب. أمام إلحاح وضغط صديقتها تلكّأت في الإجابة. أحسّت صديقتها أنّها تخفي شيئا عنها. لأنّ لا أحد في مثل ظروفها كان سيرفض عرضها. اضطرت سولافة أن تقصّ عليها قصّتها. ذكرت لها أنّها كانت سجينة لدى الجيش الأمريكيّ في سجن أبو غريب الشّهير . وقد تمكّنت من الهرب لتسقط رهينة داعش. ثم الأقدار تساعدها مرّة أخرى على الهرب. وقصت عليها بقية حكايتها المرّة إلى لحظة وصولها فاليو.

همهمت الأمريكية وقد رقّ قلبها لهول ما قاسته صديقتها لكن لم تقل شيئا. غابت أربع أيّام ثم جاءت بسيّارتها. أمام شبّاك شقّة سولافة القديمة ركنت سيّارتها وضغطت باستمرار وبحركة استهتار على المنبّه، خرجت سولافة مسرعة. لتجد الرؤوس المطلّة من الشّبابيك مشرئبّة. تنظر إلى السيّارة الفاخرة التي دخلت شارعهم المتواضع.

اقتربت سولافة من السيّارة. فأشارت عليها صاحبتها بالصّعود ثمّ ساقتها في سرعة جنونية أخافتها. حيّتها سولافة فلم ترد وظلّت صامتة والسيّارة تأكل الإسفلت في نهم. ممّا أثار ريبة سولافة وحفّز الأدرينالين لديها ولعبت بها الظّنون. أيمكن أن تخونها صديقتها؟. هل تسلّمها إلى الأنتربول ومن هناك إلى السّجون العسكرية بأمريكا؟. ولماذا لا تفعلها؟. أليست ابنة مسئول سابق في الكونغرس؟. أليست السيّاسة لعبة قذرة؟. ربّما تطمح هي الأخرى بمنصب كرسيّ البيت الأبيض.

أحسّت بريقها قد تيبّس في خلقها وازدادت نبضات قلبها في التّسارع. لكن ما أمامها سوى الصّمت وانتظار مصيرها المحتوم.

بعد ساعة وصلت السيّارة إلى الشّاطئ أدركت سولافة أنّها وصلت إلى مصيرها المحتوم وسقطت في المجهول المخيف. كادت تتقيّأ من شدّة التوتّر أمام الصّمت المطبق. لكن الأخرى التفتت إليها ضاحكة:

-مالك شاحبة؟. هل ظننت؟. يا الهي...

ردت بتلعثم:

-لا لا... لا.

-بل هو كذلك... أغمضي عينيك... هيّا.

أغمضت عينيها والشكّ يأكلها. فوضعت في يدها ظرفا ثم همست برقّة:

-هيّا سولافة افتحيه.

فتحته بيدين مرتعشتين... قرأت ما به ثم ارتمت في حضن صديقتها باكية. فقبّلتها بدورها وربّتت كتفيها:

عفو عنك من وزارة الدّفاع الأمريكيّة وسمحوا لك بدخول الولايات المتّحدة مع تسجيل بالجامعة لدراسة الطّب هناك. ليس لك من عذر إلاّ السّفر معي. هناك ستجدين شقّة باسمك وسيّارة ولا خوف عليك. هذا أقلّ ما يمكن من التّعويض عن الظّلم والأذى الذي لحقك بسببنا. نيويورك ترحّب بك غاليتي سولافة.

الباب الثّالث

اللّيالي كلّها أمضيت حياتي أحسب،
لكن في حساباتي لم أكن أعدّ لا أبقار
لا ليرات إسترليني
لا فرنكات
لا دولارات
لا، لا، لا شيء من هذا...

بابلو نيرودا

الفصل الأوّل

الإخطبوط العملاق

-يا أنت... لا تمسح بالمنشفة ولا تضغط بقوّة على وجهك.

بامتعاض:

-محمود... محمود أنت تراقب حركاتي وسكناتي كثيرا. أتركني على راحتي يا أخي وإلاّ سأترك لك المكان من اليوم

وسأبحث لي عن سكن إلى أن أجد سولافة.

- ياسر... حبيبي... كلامي لا يغضب ولا أراقب حركاتك وسكناتك كما تقول أنت صديقي ولو تسكن العمر كلّه معي لن أكون إلاّ سعيدا برفقتك.

-إذا أتركني وشأني يا أخي.

-لا أتدخل بك ولا أراقبك ولكن مصادفة نظرت إلى الرّواق الذي قدمت منه من غرفة الحمّام فلاحظت مدى عنف حركتك وأنت تنشّف وجهك . فقلت لك افعل ذلك بلطف. فالعنف يرهّل البشرة ويجعّدها. ألا يكفيها الغضب والحزن والتوتّر والتلوّث البيئي والتقدّم في السنّ. حافظ على شبابك يا أخي... تريد أن تنكر سولافة شيخوختك؟.

-هههههههه آاااااه... أين هي سولافة؟. ها أنا أبحث عنها منذ كم من شهر في هذه المدينة الشّاسعة وكأنّني أبحث عن إبرة في كومة قشّ.

رقّ له في حزن ثمّ حاول أن يغيّر مجرى الحديث ليروّح عنه:

-ياسر هل قرأت صحف اليوم.

-لا.

-هل شاهدت الأخبار؟.

-لا...

-كيف لا؟. هل ثمّة مواطن عربّي لا يقرأ أو يشاهد الأخبار صباحا؟.

-مللت أخبار الكوارث والحروب والخيانات وموتى كورونا؟.

-وليكن ما يكون. الإنسان عليه أن يكون مطّلعا؟.

-هات ما عندك.

-أكيد سمعت من قبل بالإخطبوط العملاق العجيب الغريب ؟. ذلك الإخطبوط البرمائي الذي يزحف كلّ ليلة ليصطاد عددا من أهل تونس وجبة له ولصغاره. يعبث بالمحاصيل والمتاع. يدخل حتّى الإدارات والمؤسّسات والبنوك.

يبتلع الأوراق المالية والسّبائك الذّهبية والوثائق وما يفيض عن حاجته يعطيه إلى بعض رهطه في بحار أخرى. بات الأهالي يعيشون في رعب على أولادهم وأرزاقهم وأصبحت البلاد على حافّة الإفلاس.

-هل هذا من قبيل أفلام الخيال العلمي؟.

-لا هو من قبيل الحقيقة.

-يبدو أنّك تأثّرت بالأفلام الهوليودية بعيشك هنا وصرت تؤمن بالخوارق.

-أنا أروي الحقيقة. أعني حقيقة ما سمعت وما قرأت.

-أخبار زائفة وكاذبة.

-كلّ وسائل الإعلام تتداولها.

-لا عليك... هراء.

-أخبار الإخطبوط الهائل منذ أكثر من عشر سنوات.

-هههههه.

-وسائل إعلام تركب موجة الوهم والإشاعات.

-ليست وهما ولا إشاعات.

-سأقصّ عليك قصّة هذا الإخطبوط.

-وله قصّة أيضا؟. أنا وأنت أليست لكلينا قصّة ؟. لنا قصّة أخرى تجمعنا فما بالك بإخطبوط.

-أكتشف الإخطبوط في ثمانينات القرن الماضي، حيث ظهر بالجنوب. كانت له أذرع طويلة جدّا. يمدّ الواحدة منها فتمسك بحدود خريطة البلاد في أقصى الجنوب. يمدّ ثانية تمسك بحدود الخارطة في أقصى الشّمال وأخرى بالوسط وأخرى بالسّاحل. صارت الخارطة لعبة بين أذرعه. يحركّها كقطعة شطرنج. تفطّن الأهالي لذلك. لأنّه كلّما

حرّكها بين أذرعه شعروا ولو في نومهم بقوّة الرجّة وأصابهم الدوّار. فرفعوا أمره إلى أشهر صيّاد بالمدينة.

كان الصّياد متمرسا، شديد الفتك. ترصّده في إحدى اللّيالي وأصابه في عينه اليسرى لكن لم يقتله.

– من ليلتها غابت أخباره وقيل أنّه هرب جريحا إلى المحيط الهادي. لكن بعد الحادثة بأكثر من عقدين سمعت بثورة الياسمين أكيد.

–نعم.

–آه نعم كلّ الشّجر في حقول الياسمين انتفض على الصّياد الذي أصاب الإخطبوط.

– أغيرة على الإخطبوط وحماية له والصيّاد وهو الذي خلّصهم سابقا من دمويته؟.

–لا...

–ما الأمر إذا؟.

–لأنّ الصيّاد وعائلته استبدّوا وظلموا وحوّلوا مجرى النّهر. فأصاب شجر الياسمين العطش وأقحلت الأرض. لذلك وذات مساء عندما دخل الحقل للصيّد هاجمه شجر الياسمين.

-شجر الياسمين النّاعم.

-شجر الياسمين النّاعم لم يبق ناعما عندما مسّ في مائه وقوته.

-تقول قوته؟.

-نعم.

-هل شجر الياسمين يتغذّى؟.

-أولا الماء ريّ وغذاء. ثانيا الأرض العطشى تموت فيها كلّ المواد والكائنات العضوية التي تصبح سمادا لشجر الياسمين خاصّة صغير السنّ منه والسّماد غذاء دسما لشجر الياسمين.

-ماذا حلّ بالصيّاد ؟.

-هرب مع الفجر.

-ماذا جرى بعد أن خاب أمل الياسمين بالغذاء والماء وتخلّصوا من الصيّاد؟. هل فرج الحال وأخصبت الأرض وجرى الماء؟.

-زاد الحال سوءا على ما كان عليه.

-كيف زاد الحال سوءا؟.

تفطّنوا إلى عودة الإخطبوط مرّة أخرى فخافوا وارتعبوا لكنّه

طمأنهم. عقد العهود والمواثيق مع الأهالي. وعدهم بأن يسخّر قوّة أذرعه الهائلة والعملاقة لخدمتهم وأن يعمّ خيرها الجميع. قبلوه بينهم وصفّقوا لعودته من جديد نكاية في الصيّاد. بالرغم من امتعاض البعض ممّا حصل ولكن أعطوه فرصة ليصلح ما أفسده الصيّاد.

-عجيب غريب بحقّ... ويتكلّم أيضا؟.

-الأهالي صاروا يعرفون لغته ويفهمون عليه.

-وماذا حصل؟.

- رجعت حليمة لعادتها القديمة كما يقول المثل.

-كيف؟.

-صار أقوى وصارت أذرعه أشدّ وأفتك وأنيابه حادّة أكثر. رجع إلى السّطو على الحقول وإفساد المتاع والعبث بالأملاك وترصّد الأهالي في الكمائن والطّرقات الوعرة والجبال.

-أنت تتكلّم عن إخطبوط وليس ضبع أو خنزير أو أيّ حيوان بريّ مفترس آخر؟. هذا حيوان بحري ومكانه الماء.

-ألم أقل لك بأنّه برمائيّ وهو مخلوق عجيب غريب. فهو دمويّ ومفسد ويستمتع بدماء البشر؟.

-والجديد؟.

-الجديد أنّ الأهالي بعد أكثر من عشر سنوات عجاف ما عادوا يتحمّلون أكثر. انتشر الجوع واستفحل الفساد والعبث بأمتعتهم وقوتهم. انتشرت الأمراض والأوبئة فضاقوا ذرعا. فجأة وفي هبّة واحدة هجموا عليه في جحره. كان يتزعّمهم فارس همام قصدوا جحر الإخطبوط النّهاري الذي يختبئ به عندما يداهمه الصّباح قبل أن يرجع إلى عمق البحر. اشتدّ الصّياح والغضب بالأهالي. لكنّه كالعادة عندما لاحظ بأس وشدّة الفارس وهو يقترب من جحره. ارتعب وخاف وكأنّه ليس هو. جرى بأقصى سرعته الهائلة. ركض نحو البحر، غاص في أعماقه. أظنّه رجع إلى المحيط مرّة أخرى، تاركا أولاده وراءه في تيه بين البحر والبرّ.

-أخيرا تخلّص الأهالي من بطشه وشرّه... وهو إخطبوط هرم ذهب إلى بئس مصيره.

-نعم والغريب في الأمر أنّ أولاده الصّغار تنكّروا لأعماله وتملّصوا منه وثاروا عليه.

-أبناء الإخطبوط لا يؤتمن لهم جانبا والأهالي يخطئون لو يطمئنون لهم مرّة أخرى.

-تونس هذه عجيبة غريبة... أحيّي أصلهم والله.

الباب الثّاني

رجل البلدوغ

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلّب في أنيابها العطب.

عنترة بن شداد.

بـزّة حمـراء رثّـة يـكاد لا يظهـر لونهـا مـن كثـرة مـا تراكـم فـوق قماشـها مـن أوسـاخ وأصبـاغ ومـا تجـيّر مـن ملـح جسـده. قبّعـة زرقـاء متهرّئـة، وشـعر كـثّ، ولحيـة مسترسـلة بفوضويـة. زجاجـة الجعـة في يـد وقطعـة خبـز فرنـسيّ تبـدو ناشـفة في اليـد الأخـرى. يجلـس في ممـرّ الحديقـة المشـتركة بـين سـكّان العمارتـين المواجهتـين. مبـاشرة خـارج نافـذة إحـدى الشّـقق الأرضيـة. إنّـه

الرّجـل الـذي يحيّرهـا باسـتمرار. سـلوكه غريـب وأطـواره غريبـة... ربّـما أصيـب جـرّاء صدمـة في حياتـه بلوثـة جنـون. أو عـاش أحداثـا رهيبـة صيّرتـه إلى مـا عليـه. ليسـت ممّـن يهتـمّ بالآخريـن وليسـت فضوليـة في

عادتها.

لكن شيء بداخلها يحرّضها على معرفة وفهم سلوكه وحياته. أطفال المدارس يهرعون إلى مدارسهم ويعودون إلى بيوتهم وهو جالس بالممرّ. زجاجات الشّراب الرّديء الفارغة تسيّجه حيث جلس صباحا. ظاهرة سوسيولوجية فعلا لذلك تهتمّ به. فهي على الرغم من دراستها الطبّ تعمّقت قليلا في السوسيولوجيا التي عشقتها حين كانت في اليونان، أين تعرّفت إلى طالبة في المرحلة الثّالثة من الاختصاص. كانت قد تحمّست ودرست علم الاجتماع لسنتين بالجامعة.

أخيرا بعد أن أصاب رجليها الخدر من كثرة تسمّرها واقفة بين الحين والآخر أمام نافذتها لمراقبة سلوكه، رأته يقف ويمشي ناحية الممرّ. كان يخفي شيئا لا تعلم ما هو في حاشية ثيابه. تقدّم ماشيا بتثاقل في رواق الحديقة. بصق صوب أزهار شجرة البوقنفيلي القرمزيّة اللّون... إنّه يدخل العمارة. وبعد دقيقتين سمعت المصعد يفتح في أوّل الرّواق. سمعت خطواته تقترب من بابها.

أصابتها موجة خوف. ضخّ الأدرينالين بزيادة في أعصابها. ارتعبت من هذا المتقدّم إلى بابها. هذا الغريب الذي دأبت على مراقبة حركاته وسكناته. تراجعت بخفّة عن النّافذة. أسدلت السّتائر جميعها على كلّ

النّوافذ بالبيت. أطفأت النّور. أطفأت التّلفاز. أطفأت هاتفها. إنّها مرتعبة كثيرا. أليست الوحيدة في هذه المدينة الكبيرة؟. مدينة الجرائم المتعدّدة الأشكال والسيناريوهات. خاصّة تلك التي ترتكب ضدّ النّساء وضدّ من هم من جنسيات أخرى من الأسيويين والأفارقة والعرب والمسلمين على وجه الخصوص لربّما لاحظ أنّها تراقبه. وأنّها تختلس النّظر إليه من النّافذة كلّما سنحت لها الفرصة.

تلصّصت من وراء العين السّحرية للباب. رأته لا يزال يتقدّم بتثاقل وترنّح نحو باب شقّتها وسمعته يدقّ الباب بقبضته. تجاهلت الصّوت ولزمت الصّمت حتّى خيّل إليها أنّها حبست أنفاسها كي لا يستمع إلى زفيرها وشهيقها الأبكمين كهاتف يرنّ بلا صوت. استمعت إلى صوته من خلف الباب:

-افتحي الباب أعلم أنّك هنا.. ولم تغادري شقّتك منذ البارحة. أنا الغريب عنك ولكن أعرفك. أنت جارتي منذ سنين هنا. افتحي لأملأ خلوتك الصّامتة حياة. شفتي الظّامئتين تبحثان عن شفتيك الحارقتين المكتنزتين المتأججتين. افتحي يا فتاة. لا تجعليني أكسر الباب، لأني أعلم أنّ ما بك بي. أنت ترقبينني لأنّك تشتهينني أيّتها العراقية المتأجّجة عشقا.

فجأة اشتعلت بدمائها نيران التّحدي. تقدّمت نحو الباب بثبات. فتحته للغريب المغرور بشدّة. هذا الكركدن، الكريه ذو التّقاطيع الصّارمة ستلقّنه درسا لن ينساه. إنّه تجرأ وقال ما يجب ألاّ يقل وداهم بيتها بتعجرف وسكّان العمارة يستمعون والبعض يشاهد. إن صرخت لن ينجدها أحدهم. لذلك غير مجد تصنّع الغياب عن الشقّة وغير مجد الخوف في مثل هذه المواقف. ستواجهه بصفاقته وقذارته ودونيته هذا النتن.

قال وهو يدلف إلى الدّاخل:

- البارحة لم يغمض لي جفن كامل اللّيل وأنا أفكّر فيك.

قالت بحزم:

- قل ما عندك أيّها الغريب الفضّ واذهب في حال سبيلك. أنا على عجلة من أمري.

بابتسامة خبيثة:

-دعيني أفصح وأعلن كلّ ما أخفيه.

بقلّة صبر قالت:

-قل..

في صفاقة مرّة أخرى:

-ألـن أشرب كأس وسـكي... آه نسـيت النّسـاء المسـلمات لا تشربـن الخمـرة. دعيـه فنجـان قهـوة عربيّـة بنكهـة الهيـل

والزّهر.

فـار الـدّم في رأسـها لاكتشـافها معرفتـه كلّ شيء عنهـا وأرادت أن تهادنـه لتعـرف سرّه بـدل مهاجمتـه وهـي سـليلة النّسـاء العربيّـات الـلّاتي اتّصفـن بالحكمـة والدّهـاء..

-طيب اجلس على تلك الكنبة بقاعة الجلوس ريثما آتيك بالقهوة.

غابـت لحظـة صبّـت فيهـا فنجانـين مـن ترمـس بـه قهـوة جهّزتهـا صباحـا كالعـادة كـما كانـت تفعـل في أيّامهـا الخـوالي في العـراق. فالقهـوة عنـوان التّرحيـب بالضّيـف وحسـن الضّيافـة خصيـة عربيّـة.

عندمـا وضعـت القهـوة فـوق المنضـدة وجلسـت، اقـترب منهـا أكثـر فابتعـدت كمـن مسّـه مـسّ مـن الجـنّ صارخـة بـه:

-فتحـت لـك كـي أتجنّـب تقـوّل الجـيران ولأمنحـك فرصـة حتّـى تقـل مـا عنـدك. فـاشرب فنجانـك وهـات مـا عنـدك مـن كلام وارحـل. أنـا بحاجـة للرّاحـة في بيتـي أعتقـد مـن حقّـي.

ثم بلهجة ساخرة:

- أنتم شعب يتشدّق بالرّيادة في الحقوق أليس كذلك.

وهو يلعب بشعر ذقنه:

-أيّتها السّيدة العذبة أنت دبّوس في القلب... كلانشنكوف مصوّب إلى حشاشتي. لم أر قطّ امرأة بهالتك في القتال من أجل الحياة. افتحي كتاب قلبي. جئتك لتفتحيه. معك سأرجع ولا شكّ الطّفل الذي كنت.

مثل زهرة الخشخاش تكوّرت سولافة حول نفسها حتّى لامست لحيتها ركبتيها وهي جالسة . أمامها وفي بيتها يجلس ذئب في جلد خروف. هذا ما قاله لها إحساسها. تلقّفت كلمات مفاتيح في حديثه وواجهته بشراسة. أراك تجهّز لوجستيا لحرب.

اضطرب عند سماع الكلمة وصار يحرّك رأسه ويحنيها ويلوي عنقه فوق وتحت وأجاب بصوت متهدّج:

- من قال حرب... هل قلت حربا؟.

بلهجة حازمة:

-لاشيء يسقط في السّهو والنّسيان بالنسبة لي.

بلهجة خائرة:

-كيف... ماذا... ماذا تقولين؟ أنت كقنّاصة متدرّبة.

بسخرية وقد احتفظت برباطة جأشها:

-ههه قنّاص متدرّب... قتال... كلانشكوف... صوب... دبوس... أليست هذه من كلمات حربية؟. من أنت بالضّبط؟. قل من أنت؟. آه كيف لم أنتبه؟. أنت لك دراية كافية بعاداتنا العربيّة في القهوة و كيف تصنع؟. تفسير وحيد لهذا.. هل كنت مجنّدا في العراق؟.

قفز كنمر جريح:

-سأعتبر كلامك مراوغة منفلت؟

بأكثر شدة وأكثر حزم ضغطت على أعصابه:

-قل من أنت؟. هل كنت مجندا؟. تحليلي السّوسيولوجي يقول هذا.

وهو يحكّ فروة رأسه في يأس:

-نعم كنت بالعراق.

وأسنانها تصطكّ حنقا:

-كنت تقتل أبناء شعبي هناك. كم قتلت؟. قل. كم طفل ؟. كم شيخ ؟. كم عجوز ؟. كم فتاة ويديها مخضّبة بحنّاء عرسها؟. كم شخص قتلت قل؟. مئة... ؟. مئتين؟. ألفا؟. ألفين؟. أكثر؟. هيا أخرج من بيتي.

وهو يستشيط غضبا:

-أنت عنيدة كالعيّث. تنبشين في سراديب النّار والوجع. دعك من هذ. ما فائدتك من النّبش والتّحليل؟. لا تكوني خاسرة لأنّي لم أخسر في حياتي حربا.

صارخة في وجهه مرّة أخرى:

-أقبية الرّوح فاضت وزيادة. هيّا ارحل. أخرج حالاّ من بيتي وإلاّ صرخت بأعلى صوتي.

وهو يلوّح بيده ويتوعّد:

-ستندمين... نعم ستندمين. هذا ما أقوله لك.

ثم خرج ثائرا مزبدا هائجا كمصارع ثيران . وانهارت سولافة على الأريكة كجثّة مدماة بعد أن أحكمت إغلاق باب شقّتها...

الفصل الثّالث

إعصار أيدا وإعصار المشاعر

كان الطّقس حارا على غير العادة. أحسّت بلزوجة في جسدها. نهضت بخفّة. نزعت البيجامة وجلست في المغطس الحلزوني الأبيض الذي يحتوي على كرسيّ مريح. تركت للماء المتدفّق من البخاخ حرّية قراءة تفاصيل جسدها. استمتعت بحمّام ساخن. وبرائحة الصّابون المصنوع من الورد والحليب والعسل. تحسّن مزاجها. ثمّة سكينة نزلت ضيفة بقلبها وغمرت جسدها بالرضا. عندما ذهبت إلى الفراش لم يطرق النّوم أجفانها. ولم تشأ أن تتمدّد ككلّ ليلة في أريكتها التي تتوسّط غرفة الجلوس لتشاهد بعض البرامج الإخبارية والوثائقية.

اجتاحتها رغبة جامحة بالخروج للسّهر. وضعت كأس القرنفل واللّيمون الذي تعوّدت ترشّفه كلّ ليلة منذ هجوم الكورونا على المنضدة. البارحة وقع التخلّي عن الحجر الصحّي الشّامل. لقد

سئمت المكوث بالبيت. وملّت سجنها بين أربعة جدران. ارتدت سترة فضيّة اللّون وسروالا مخملي أسود. أخذت معطفا من الفرو الأسود وحقيبة يد من نفس اللّون. وضعت قلنسوّة نسائيّة فضيّة جميلة وكمامة سوداء لحماية نفسها وغيرها من غريم الحياة. هي تخاف الكوفيد وتعيش فوبيا الموت ككلّ النّاس. لكن عليها أن تتعايش معه مع أخذ الحيطة بالتّعقيم ولبس القناع الواقي للأنف والفم. إنّنا نعتاد الأشياء مع مرور الزّمن ونتعايش معها كما اعتادت أحزانها وتعايشت معها.

ارتدت أجمل ثيابها وتعطّرت وتناولت معطفها ومطريّتها وخرجت. على درجات عتبة الباب الخارجي للعمارة التقت جارها جالسا على كرسيّه المعتاد تحت نافذته. حيّته بخفّة، وواصلت سيرها مشتّتة الذهن. لكنّه استوقفها:

-شكرا لك جميلتي..

وفي نزقه المعتاد:

-حبّ العربيّة يختلف عن باقي النّساء.. هههه.. اذهبي حيث شئت ستعودين إلى... هههه

احتقن وجهها حنقا لكن لم تجبه وأحثّت الخطا إلى المرآب حيث سيّارتها الرّابضة في هدوء منذ أكثر من عشرة أيام... أدارت مفتاح المحرّك وأخذت تتهيّأ لمغادرة موقف سيّارات البناية وحمولة كاملة من الألم فوق صدرها. لم تستطع أن تمنع علاماتها من الحفر على خدّيها. شيء ما رهيب ينتظرها، تخشاه، وتصلّي في سرّها كي لا يكون

تخمينها ورأيها بجارها صحيحين. مرعب ورهيب لو يكون صحيحا. ذلك الوحش الآدميّ يكبس على روحها من جديد بعجرفته. ظنّت أنّها تخلّصت منه . ظنت أنّه انتقل إلى مكان آخر وشقّة أخرى.

ها هي تلتقيه بسماجته المعهودة. المثل الشّعبي يقول لو تضع ذيل الكلب في قصب سنة ساعة تخرجه ستجده أعوجا. شهران كاملان على آخر مرّة رأت فيها جارها. كان بعد شفائه بأسبوع. كان ذهنها منشغلا كلّيا. كافّة تفاصيل الشقّة المجاورة ظلّت متشابكة برأسها. تحوّلت إلى ألم يقصف مواني روحها. كانت السّاعات تمشي كالسّلحفاة كما يمشي الكسلان. كان المطر ينهمر قارعا زجاج نوافذ السيّارة بجرأة.

كانت شوارع المدينة قد تخلّت عن سكونها. كان قلبها مثقلا

بالقلق والخوف. ألقت القبض على روحها متلبّسة بالوجع. تنهّدت عميقا بصوت عال، مسموع:

-عليّ أن لا أفقد سكوني وهدوئي. مشوار الحياة متقلّب وطويل إن بقيت من أهل الدّنيا. خفّفت سرعة السيّارة قبل أن تنحرف نحو الطّريق السريعة المؤدية إلى شارع برودواي. اللّوحات الضّوئية المشعّة على واجهات ناطحات السّحاب تزغلل عينيها. لوحات إشهارية كثيرة لمسرحيات تعرض أو ستعرض في المسارح الكثيرة. كانت تعاني صداعا في الرّأس ومن الدّوار والحمّى. كلّ ما تخشاه أن تكون ضحية جائحة كورونا من جديد. كانت تشعر بالضّيق. أشباح الماضي تطاردها. مشاعرها متبرّمة من السّجن في عنق زجاجة الضيّق. ممّا جعلها تشعر بالتّشتّت العاطفي.

أطفأت محرّك السيّارة عند وصولها أمام مطعم بيكولا كوزينا أوستيريا، ترجلّت. دلفت من باب بلاستيكيّ إلى فوهة تعمّها العتمة. كلّما بالدّاخل مجرّد ظلال سوداء. النّاس، المناضد الصغيرة المتلاصقة والكراسي. كادت تسقط عند وطئها عتبة المطعم. انخلع نعل حذائها. لم تشعر بوطأة الخجل الكبير، فلا أحد قد انتبه إليها أو رآها في تلك العتمة.

جلست إلى طاولة عشاء صغيرة تلاصقها أخرى من جهة اليسار في طابور طاولات مصطفّة ومتراصّة

وكأنّ لا علم لأحد بالحجر الصحّي الموجّه، وضرورة التباعد بين روّاد المطعم والفصل بطاولة فارغة بين الحريف والحريف. يبدو أن مئات الآلاف الذين قضوا في أمريكا بسبب الكوفيد١٩ رقما بسيطا بالنّسبة لهؤلاء وهي منهم. استوت الحياة والموت هنا لكثرة الإعلان عنها في النّشرات الإخبارية. ربّما هذا هو الحال قبل الكورونا أيضا. منذ الحرب على العراق وأفغانستان ألف الناس مشاهد الدّم والجثث. الكورونا بالرّغم من الرّعب الكبير الذي تبثّه لم يخف النّاس بالقدر الكافي لقد صارت مشاهد تكدّس الموتى مألوفة.

عندما خرجت من المطعم الذي لم تتناول فيه شيئا لأنّ الأكل لم يعجبها. استقلّت سيّارتها مجدّدا وتابعت طريقها بلا وجهة.

كان المطر غزيرا والرّؤية صعبة لكثرة الضباب. على الرّصيف عربة أكلات خفيفة مغطّاة من فوق ومن الجانبين. نزلت من السيّارة وصفقت الباب خلفها. اشترت لنفسها بعض الكباب والفلافل وسندويتش الهوت دوق الذي تحبّه. من العادات الغذائيّة السيّئة لسولافة، كلّما أحسّت بالضّيق أقبلت بشراهة كبيرة على الطّعام.

رجعت إلى السيّارة دون أن تدير المحرّك. أكلت بسرعة وتلذّذ كبيرين، ثم نزلت إلى جانب الطّريق وأفرغت ما في بطنها ورجعت وهمّت بإدارة المحرك. لكن رجل المرور استوقفها بإشارة من يده بعد أن وقف أمام سيارتها. طلب منها أن تنزل من السيّارة وتمشي أمامه ثمّ بآلة طبّية قاس مدى وجود مادّة مسكرة بدمها باختبار سريع. الحمد لله أنّها لا تشرب الخمرة كما ظنّ.

بعد الموقف المحرج الذي سبّبه لها رجل المرور. صعدت السيّارة من جديد. سارت بضع أمتار ببطء حيث بناية شاهقة قريبة من حيث هي. ركنت في مرآبها سيّارتها، وصعدت إلى الطّابق السّادس. اشترت تذكرة لمشاهدة مسرحيّة تتحدّث عن أصول سكّان نيويورك الذين كانوا قد وفدوا من هولندا وبريطانيا كما ترجع أصولهم إلى الاسكندينافيين الألمان والطّليان. لذلك كانت نيويورك صرّة العالم الثّقافية والاقتصادية. مدينة الأزياء والفنّ والإعلام والمال والتجّار والتّعليم والسيّاحة والعلوم وتمثّل ربع السّوق البنكيّة العالمية.

تابعت المسرحية باسترخاء. متّكئة على يدها اليمنى التي استقرّت وراء أذنها في حين. استراحت يدها اليسرى فوق أعلى بطنها.

منتصف اللّيل والنّصف. النّعاس بدأ يغالبها. إن تأخّرت أكثر في

العـودة سـتنام فـوق كرسـيّها بالمـسرح. لـن تجـد التّركيـز الـلّازم للسّـياقة الآمنـة. متعبـة ومنهكـة القـوى. فقـد تأخّـرت أكثـر ممّـا يجـب. مـدّت يدها إلى المنضـدة الصّغـيرة الملاصقـة لدعامـة كرسـيّها اليمنـى. تناولـت محفظـة يدهـا. دلفـت خارجـة. بعـد نزولهـا بالمصعـد، مشـت في رواق طويـل وصلهـا بالشّـارع. اثـر الخـروج مـن البوّابـة الخارجيـة لناطحـة السّـحاب العملاقـة حثّـت الخطـى إلى سـيارتها. دخلتهـا وصفقـت البـاب وراءهـا مـن حيـث جنبهـا الأيـسر. صوّبـت نظرهـا إلى الأمـام. أدارت المفتـاح في محـرّك السـيّارة. فراحـت العجـلات تـدور وتـدور وتلثـم إسـفلت الطّريـق التـي كانـت تشـبهها لونـا وهـي تحـاول الانعطـاف عـن شـارع تيـودور. رأتـه فـوق الرّصيـف. يحـاول فتـح سـيّارته صرخـت في الخـواء المطبـق داخـل سـيارتها:

-إنّـه هـو. مـن غـير المعقـول أن يكـون شـبيها لـه إلى تلـك الدّرجـة الكبـيرة. أوقفـت سـيّارتها.

ترجّلت منها قافلة إلى الوراء باحثة عنه:

-أووه... يا للحظّ.

لقـد سـاق سـيّارته ومـرّ مـن أمامهـا. تـاركا إيّاهـا بـين الشّـك واليقـين هـو أم ليـس هـو. لعلّـه شـبيها فحسـب. لعلّهـا واهمـة.

تحرّرت من دهشتها. جرت إلى سيارتها. أدارت المحرّك وتعقّبت سيارته. تسير حيث تسير وتنعطف إلى الوجهة التي تنعطف إليها سيارته. ظلّت إلى الثّانية صباحا في مطاردة لتلك السيّارة. من بعيد لمحت قطّة تقطع الطّريق. من أجلها اضطرّت إلى التّخفيض في السّرعة وضاعت عنها السيّارة المنشودة، وضاع صاحبها في زحام هذه المدينة الكبيرة. لم تتأكّد من هويته. لكن إحساس قويّ يقول لها بأنّه هو... هو وليس غيره. ستكون متهوّرة إلى درجة الغباء إن واصلت مطاردة الخواء بعد أن ضاعت منها تلك السيّارة. لمجرد التّفكير بأنّه الشّبيه يركبها الغمّ ويلّفها في طيّاته الحزن. لكن النّداء داخلها يناديها صارخا:

-إنّه هو وليس غيره... حبيبها ياسر حيّ يرزق. بالرغم من طول سنوات الفراق، من غير المعقول أن لا تعرفه. سترجع الآن إلى بيتها ومعها حلم بدأ يكبر. حلم بلقائه من جديد. نعم هو في أمريكا وفي نيويورك وسيلتقيان. ستلتقيه أخيرا... متحسّرة همهمت:

-آه يا ياسر... إنّك أنت ولاشكّ. أخيرا سنلتقي... أنت قطعت بحارا وجبالا ووهادا من أجلي. سأبحث عنك أو سنبحث عن بعض كأبوينا آدم وحوّاء الذين كان لقائهما بجبل عرفات.

اشتدّ وميض البروق واحتدمت الرّعود ببعضها وصارت مرعبة. فاستطردت ساخرة:

-أبوانا آدم وحوّاء التقيا بعد فراق بجبل عرفات ونحن افترقنا بالعراق والتقينا بنيويورك وإعصار آيدا بدأ يعصف بشدّة... لطفك ورحمتك يا الله...

عندما اقتربت من البناية التي بها بيتها كان الفيضان قد توحّش وبدأ يزحف بالطّرقات ومحطّات القطار والمترو.

شاهدت النّاس يفرّون منها وقد تحوّلت واجهاتها إلى شلاّلات مياه عنيفة. شاهدت في طريقها المرعبة بقايا شقق خشبية تتطاير وأسقف تحملها الرّيح العاصفة كقطعة إسفنج خفيفة لترمي بها في الشّوارع والطرقات..

وقد بدأ اللّيل يرحل وصلت إلى بيتها بشقّ الأنفس وقد أخذ منها الهلع مأخذا الكبير. كادت تهلك وكادت المياه تجرفها وسيّارتها.

وهي تصل إلى المرآب كانت البناية غارقة في نهر ظلمة. أغلقت أبواب سيّارتها على عجل والخوف يقتلها من إمكانية تدفّق مياه السّيل إلى الدّاخل وإغراقها.

بقلبها استشعرت الطّريق المظلمة إلى شقّتها، حالما وصلت ودلفت إلى الدّاخل أغلقت الباب بسرعة وأحكمت غلقه. توجّهت مباشرة إلى شمعة بالرّواق أشعلتها بالقداّحة التي معها. عندما تبدّدت بعض ظلمة الرّواق تجولت بالبيت وأشعلت جميع الشموع المنتشرة على المناضد والشّمعدانات المعلّقة بالجدران. شربت كأس حليب بالعسل وأردفتها بفنجان شاي أخضر باللّيمون والنّعناع وتناولت شطيرة خبز مصنوعة بالجبن.

الحمّام الدافئ ورائحة الصّابون المصنوع من الياسمين أنعشاها. لبست ثوبا خفيفا قماشه من السّاتان الحمر النّاعم. وغرقت في نوم عميق... تحلم بلقائه وتستعيد تلك اللّقطة التّاريخية الخاطفة وهي غير مصدّقة ما حصل. كانت مصادفة ولا أروع في حياتها. أخيرا ياسر في أمريكا وفي نيويورك بالذّات. حبيبها ياسر حيّ يرزق. صحيح ضاع منها البارحة قبل أن يتفطّن لوجودها ولكنّها ستبحث عنه وستجده... فهي كالعيث في عنادها.

الفصل الرّابع

عندما تلتقي الدّروب

كلبـؤة في قفـص راحـت تـذرع الغرفـة ذهابـا وإيّابـا شـمالا ويمينـا. إلى الأمـام بعـض الخطـوات ثـم إلى الـوراء. تقـف عنـد هـذه الزّاويـة وتلـك، تتوقّـف هنيهـة أمـام النّافـدة ثـم تبتعـد في ذهـول.

أكثـر مـا كانـت تخشـاه أن يسـيطر عليهـا السّـأم في هـذه المدينـة الغريبـة عنهـا وينفلـت منهـا قلبهـا كخـروف فصـل عـن أمّـه. لقـد فلحـت كلّ هـذه السّـنين في أن تسـدّ ثقوبـه بالعمـل ثـم العمـل. أغلـب الظـنّ أنّهـا قـرّرت التّخـلي عـن قلبهـا نهائيّـا

وأن تبنـي جـدارا يسـدّ منافـذ المـاضي. فالمـاضي هـو يـاسر ويـاسر لا أخبـار عنـه ولا فائـدة مـن انتظـاره. ربّـما قـضى في إحـدى التفجـيرات. ربّـما هاجـر. ربّـما بقـي هنـاك وتـزوّج ونسـيها. آن الأوان أن تنسـى كلّ حياتهـا الماضيـة لتتركهـا الأحـزان. ليـس مـن المعقـول أن تقـضي عمرهـا

حبيسة ماض أليم. كان الوصول إلى السّلام الرّوحي أكثر يسرا من أي شيء آخر في المساء. أغلب الظنّ أنّها توصّلت إلى حلّ. ضرورة عقد اتّفاقية مع حياتها الحاضرة. ترك ياسر وأهله وأخباره. لقد أصبح ياسر واحدا من أكبر كوابيسها. كلّما أصبح جزءا من فكرتها أوشكت على الجنون

وتبرّمت بكلّ شيء. في سطوة الصّمت المتوحّش حدّقت بشرود وضياع في ما حولها. نظرت إلى ساعة هاتفها

وهمهمت:

– أوف... الثّامنة... مرّت ثلاث ساعات ثقيلة عليها. بسرعة دفنت نفسها في فقاقيع الصّابون وثورة الماء الدّافئ. تخلّصت من ملح الدّموع على خدّيها ومن عرق القيلولة. غيّرت ملابسها وتأنّقت على طريقة الهيبيز. سروال فضفاض جينز وقميص صوفيّ متهدّل كأنه مرقّع بعدّة أقمشة من عدّة ألوان. حذاء رياضيّ وحقيبة ظهر جلدية. ولبست الكمامة اللّعينة .

صفقت الباب وراءها وراحت تشقّ صفوف المارّة لا تلوي على شيء. بلا وجهة محدّدة. تطوي الشّوارع والأنهج طيّا. هاربة من نفسها ومن ياسر وثقوب قلبها التي لا تريد أن تنغلق. فالأمل باللّقاء

الـذي كان كبـيرا يـوم خروجهـا مـن العـراق تقلّص ومـال إلى زاويـة صغيرة تـاركا المسـاحة للوهـم. باندفـاع أهـوج عاشـت وهـم اللّقـاء ثانيـة كلّ هـذه السّـنين. سـافرت بعينيهـا وروحهـا بعيـدا، لتجـد مـا هربـت منـه قبـل قليـل. يـاسر يبتسـم لهـا ويلـوّح في بقعـة ضـوء وهّاجـة أمامهـا. عرفـت أنّ النّهـار لم يكـن ملائـما لنسـيانه. أغمضـت عينيهـا ضاغطـة عليهـما بيديهـا الاثنتـين ثـم فتحتهـما وفركتهـما.

جاءها صوت من بقعة الضّوء الوهّاجة:

– في طريقنـا إلى الفجـر لم يغلـق القـدر وجهـه في بابنـا... أيّ معجـزة هـذه التـي لاقـت بيننـا عـلى مرفـأ الأيّـام. باعـدت بيننـا الـدّروب القصـيرة ولاقـت بيننـا الـدّروب الطّويلـة. بعدمـا خلنـا لحننـا القديـم قـد تكـسّر في ضلوعنـا. تقاذفتنـا الدّوامـات المتتاليـة الواحـدة تلـوى الأخـرى. ما أقسـى ألاّ نسـتعيد تلـك الأيّـام.

رمقـت الشّـبح القـادم مـن بقعـة الضّـوء المتوهّـج بارتيـاب. تقدمـت منـه، مـدّت يدهـا اليمنـى متحسّسـة فـروة رأسـه وخـدّه وأنفـه وعينيـه. تتفـرّس ملامحـه كـما يفعـل فاقـد البـصر. هـزّ رأسـه بـين يديهـا علامـة الإيجـاب.

قفزت فجأة إلى الوراء كمن مسّها ضرّ:

-زمن لعوب مراوغ.

-والدّموع تفرّ من عينيها دندنت لحليم فنان مراهقتها:

بتصحّي الطّريق خطاوينا... وأنين السّنين

والسّماء بتبكي علينا والناي الحزين

حتى نجوم ليالينا والقمر غايبين

وتاني تاني تاني

راجعين أنا وأنت تاني للنّار والعذاب من تاني

هايمين بنجري وراء الأماني...

ردّ عليها ببيت لفاروق جويدة:

لا تسألوا الطّير الشّريد لأيّ أسباب رحل.

اقتربت منه من جديد تتفحّص ملامحه وأنفاسها تتصاعد بحرارة لاهجة ببيت للمتنبّي:

- لا تعذل المشتاق في أشواقه حتّى يكون حشاك في أحشائه..

ردّ دون أن تكفّ دموعه عن التمّوج فوق خدّيه:

-ولكنّ قلبي بين جنبي ما له مدى ينتهي بي في مراد أحده

وما كنت كمن يجخل الحبّ قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق.

ارتمت في حضنه لاهفة، خائفة، عاشقة، فشدّها إليه ضامّا إيّاها بقوّة وعنفوان.

وهي تتمتم:

-يا لها من لحظة مدهشة.

-أنت... هو أنت... نعم أنت... أنت نفسه. ياسر بلحمك وشحمك. هي رائحتك التي لم تفارق منخري وهو عطرك الذي يضوّعني هذه اللّحظة. حنان صدرك. أنت هو، نعم أنت ياسر ولست أهذي أو أحلم أو يتهيّأ لي.

أرسل القمر شعاعه الرّخيم والأغاني دندنة بين الشّفاه. نسيا العالم من حولهما وغرقا في بحر الدّموع والقبل الحارقة الملتهبة. قفزت كلّ الأشواق والمشاعر المكبوتة الحبيسة المسيّجة بالآلام تمرّدت على عقبيهما. لم يستوعبا بعد هل تمّ فعلا الملتقى بعد فراقهما المضني وانقطاع الأمل في كثير من الأوقات؟.

أراد محمود الذي بقي وسط شعلة الضّوء مسمّرا في مكانه أن يرجعهما إلى واقعهما ويؤكّد لهما أنّهما قد التقيا فعلا

وليس بحلم سيسدل السّتار عنه بعد هنيهة فتنحنح:

-إحم إحم... يا عالم نحن هنا...

تحرّر ياسر فجأة من حضن سولافة ونظر حيث شعلة الضّوء ثم طأطأ رأسه مبتسما في حياء ونظر إليها ثانية مشيرا بيده إلى حيث محمود:

-محمود أعتذر منك كدت أنساك. المعذرة الصّدمة فوق المستطاع مع أنّها مبهجة فوق الخيال. سولافة حبّة القلب أقدّم لك صديقي السّوري الفنّان التّشكيلي محمود سكينجة لولاه ولولا دعمه اللاّ محدود لي لما كان من السّهل أن نلتقي.

في رقّة:

-مرحبا أستاذ محمود، شرفت بك جدا.

-وأنا آنسة سولافة، ياسر الزبيدي هذا يعشقك حدّ الجنون.. هنيئا لك به لم يغيّر مشاعره صدأ الأوجاع مثلي.

تدخّل ياسر:

-دعنا من الألم والأوجاع الآن. لنا المتّسع من الوقت لنحكي الكثير ونعرف الكثير من أخبارنا. أنا أسكن عند محمود وسيأتي اليوم الذي يقصّ عليك فيه كل حكايته. محمود عاش قصّة حبّ مؤلمة جدا أيضا قد تفوق حكايتنا وجعا.

في إحباط مع دموع:

-لا حكاية أوجع من حكايتنا يا ياسر؟.

-دعونا من الألم الآن... هيّا نحتفل بروعة وسعادة هذه اللّيلة.

هتف محمود:

-أنا أدعوكما لعشاء في مطعم فاخر، بعد ذلك سأتخلّص منكما لأذهب إلى شأن لي

وهو يضحك:

-حبيبتي الفينيزويلية الجميلة تنتظرني لأبيت معها هذه اللّيلة.

دون أن ينبسا بكلمة رافقاه إلى حيث تربض سيّارته المرسيدس السّوداء. حلمهما الآن مثل كلّ الأحلام الكبرى التي تتّسع روافدها وتحيط بكلّ الغيوم لتحاصرها بتجلّيها ليبق الأفق آسرا، باذخا، يشعر النفوس الشغوفة بالامتلاء. لا غالب لهما إلاّ الشّوق ولا غالب لهما إلاّ

قلباهما المتمرّدان على قفصيهما كطائرين كرها الحبس الطّويل.

صار كلّ من حولهما محتفلا معهما، الرّيح ترقص وتحرّك في خفة ثوب سولافة الخفيف وتكشف عن مرمر صدرها النّاصع البياض. أنهار الضّباب تنسكب في قرار عميق وتختفي محطّمة كلّ الحواجز. بخطى سريعة كان العابرون من حولهم رواحا وغداة يجتازون الطّرقات المتقاطعة...

خيّم اللّيل على المدينة، لكن بقعة الضّوء الوهّاجة لم تفارقهم وبقيت تتبعهم إلى السيّارة، حارسة وفية لهم. حتى بعد أن انطلقت السيّارة في طيّها للطّريق في توحّش كبير تبعتها من فوق.

بداخل السيّارة سيل الوجع قد هدأ. ألوان، وأفكار، وكلاما لم يقل. إيقاعات شتّى تعزف بالقلوب الثّلاثة التي وقعت فريسة للاختلاجات العصبيّة المتموّجة أحيانا كتسونامي. إنّها رقصة الأمل العنيفة داخل قلوب كادت تفقد إنسانيتها وأحلامها. تمرّدت الآن ومن الصّعب جدّا ترويضها. حتّى محمود الذي ملأت فراغ أيّامه الكآبة وكانت حياته منسابة حزينة في دغل الشّهوة البهيمية بلا مشاعر. تأثّر بموجة اللّقاء و هزّه الأمل هزّا عنيفا مثلهما. كان مصير رهيب كئيب... والآن يهتزّان ويرتجفان...

لأنّه عاش آلاما مبرحة وبنفس القدر تقريبا. لكن هاهو مثلهما لا يزال ثائرا وعواطفه مشتعلة تحت الرّماد. الألم الخفيّ يخفي لهفة وشوقه للحبّ الصّافي. صار هذه اللّيلة محموما. واهم من ظنّ أنّ لا قلب له. هاهو الفرح يستنزف وهج قلبه. هوى عاصفا جديدا. إحساس عذب كنسمة صيف يداعبه الآن. روزاليا... نعم روزاليا الفينيزويلية الجميلة التي طالما ذرفت دموعا على صدره شاكية برود مشاعره. لأنّه قرّر ذات يوم أن يسجنها في ماضيه بعيدا... في ساحة المرجى.

لكن روحه التي ظنّها قد ماتت رويدا... رويدا لاعتقاده وجزمه بأنّ من أحبّ ذات مرّة لن يحبّ من جديد لأنّ

مشاعره صدئت من شدّة الحزن المكبوت والفتور. هاهي بلا نقصان هذه اللّيلة. ناصعة كأيّ نهار. لفت انتباهه إلى كمالها سولافة وياسر. أفعمت قلبه نشوة جديدة ونهضت مشاعره الرّقيقة الفيّاضة من نومها الطّويل وها هو ظامئ للحبّ كما لم يحبّ من قبل. كان ثلاثتهم سيئي الطّالع في الحبّ .

. خيّم صمت رهيب على السيّارة. ياسر يطوّق خصر سولافة وهي تشدّ يسراه إلى صدرها والعيون تحكي كلاما تعجز الأشعار والرّوايات والقواميس عن حصره أو ترجمته وأقوى الحواسيب عن

تدوينـه في صفحـات وورد بكـماء صـمّاء جافّـة.

بعـد نصـف سـاعة توقّفـت السـيّارة أمـام مطعـم بشـارع مزدحـم. نـزل ثلاثتهـم وتقدّمهـم محمـود إلى الرّدهـة الكبـيرة الواسـعة ذات البـلاط الرّخامـيّ اللاّمـع كعينـي عـذراء تبكـي حرقـة الحـبّ. خلفـه سـارا العاشـقان المعذّبـان متعانقـان. والقبـل المسروقـة مـن نظـر محمـود بـلا عـدد.

في المطعـم كانـت عينـا سـولافة المتوهّجتـين بالبهجـة النّـادرة مركّزتـين كعينـي نـسر عـلى ملامـح يـاسر، و كانـت روحهـا تنزلـق في روحـه كسـمكة جائعـة. الفـرح يصحـو والأسـى يتلاشـى كـما لم يكـن بذلـك الثّقـل الـذي عانتـه.

أمّـا محمـود فقـد أكل بشراهـة ثـم مسـح يديـه وفمـه وهـو يحـوّل نظـره بـين سـولافة ويـاسر، ثـم رمـى المنديـل فـوق الطّاولـة في حركـة بعيـدة بعـض الـشّيء عـن اللّياقـة غـير مقصـودة قائـلا:

-طيّـب أيّهـا العصفـوران هنيئـا لكـما، أيـن أقلّكـما قبـل أن أذهـب لعصفـورتي الجميلـة أنـا أيضـا؟. أتذهبـان إلى شـقّتي؟ أم إلى شـقّة سـولافة؟ أم إلى مـكان آخـر؟.

ياسر وهو يساعد سولافة على أخذ ممرّ بين الطّاولات:

-قرّبنا من بيت سولافة، سنتمشّى قليلا قبل أن أصطحبها إلى بيتها ثم أرجع إلى البيت، أقصد إلى بيتك ولا تقلق المفتاح معي، فقد قرّبنا قليلا كما قلت.

في خضوع صامت انصاعت سولافة لقراره بلهفة عارمة، لا رغبة لها الآن إلاّ استجداء أيّام ربيعها الذي أفلتت به سنوات العناء والأسى.

في شارع مايدن لان الجميل... كان ياسر يسير وعيناه تحملقان في وجه حبيبته الذي أضاعه من عينيه أعواما. في عينيها الواسعتين المتوهّجتين المضيئتين، في ابتسامتها الحيّية السّاحرة وشعرها الأملس كالحرير. كانت بشرتها النّاعمة كبشرة رضيعة مكتنزة بالحيوية والكولاجين، إنّها نجمة ليلته، كلّ عواطفه رست على شواطئ الطّمأنينة والأمل. كلّ الشّوارع غلبها النّعاس، النّجوم أيضا نامت، حتّى القطط المشرّدة نامت. شيئا فشيء اندفعت الظّلمة الحالكة بعيدا.. بعيدا لتترك المجال لنور رصاصيّ جميل يغالب سطوة وجبروت الشّفق الآتي على مهل من جهة الشّرق.

الصّبح لا يزال في مرقده هانئا وكأنّه لا يرغب بإثارة الضّوضاء

والجلبة حول ياسر وسولافة الذين غاصا في سعادتهما إلى الأعماق.

عصفور متطفّل حانق عليهما لأنّ حبيبته هجرته راح يزقزق ويرفع صوته لينبّههما إلى هجوم الصّباح، همس ياسر في أذن حبيبته:

-كلّما شربت من كؤوس عينيك وصدرك وظننت أنّني أفرغت ما فيها، امتلأت من جديد. إنّك تملئينني، تملئين كلّ شيء من حولي، تملئين الكون يا كوني .

ثم أضاف وهو يتنهّد:

-آه يا حبيبتي... مرّ اللّيل ولم نشعر به ونحن في نيابة عمل للقطط المشرّدة بالشّوارع، النّهار طلع هيّا بنا.

كانت كلماته المخضّبة بالرّغبة والحبّ دافئة مهتاجة فهمهمت بضعف واستسلام:

-نعم هيّا بنا.

-هيّا بنا حبيبتي... أنا الآن على ضفاف عينيك البرّاقتين الجميلتين وعلى تخوم جسدك المضيء ولدت مجدّدا. آه يا سولافتي الحلوة، سولافة روحي، لماذا يداهم حبّك بوحشية فاكهة أشجار عمري؟. لماذا صارت أحلامي أكثر اتّساعا، إنّني أغوص في نشوة غامضة، أنت

نبع نهر الحياة وأنا المصبّ. كنت أستشعر هذه السّعادة الغائبة عنّي، لذلك حرصت على صيانة وديعتك في صدري، نعم إنّه حبّك الكبير المنقوش بماء الخلود على لوحي المكتوب.

بضعف مرّة أخرى وقد تعلّقت عيناها بعينيه في دلال:

-هاك المفتاح، أدره في قفل باب الشّقة.

وهو يحضنها بيد فتح الباب بيد أخرى ودلفا للدّاخل.. ليس ببعيد عنهما عينان حاقدتان تتلصّصان عليهما، إنّه القذر كريه الرّائحة.

الباب الرابع

كلّ شيء يبتعد عنك كما في ظهيرة مكتملة
لك طفولة النّحلة الهاذية
قوة السّنبلة، ثمالة الموجة
مع هذا فقلبي القاتم يبحث عنك...

بابلو نيرودا

الفصل الأوّل

بهاء الإنسانية

وهي توارب الباب أفزعها خروج القطّة من بين رجليها. لسعها الهواء البارد القادم من الحديقة، دغدغ عينيها الملتحفتين بمئزر النّعاس. تناثرت خصل شعرها الجميل، هزّ كنزتها الرّقيقة الخضراء التي طالت حد أول فخذيها الأبيضين كقشرة بيضة ناصعة، فلملمتها بيديها الرّقيقتين. قبالتها تتمايل الأشجار من الرّيح الخريفية الباردة ثم تطوي أعناقها وتقطع بعض جذوعها. شيء ما يحاول أن يخلع قلبها من صدرها. كلّ المدينة الكبيرة حطّت مرساتها على قلبها، ضوء مكسور يدخل خرائب روحها ويكّسر ضلوع السأم محاولا فقأ عيون الحزن الرّاكض بسرعة في أعماقها. أمامها وعلى بعد عشرين مترا، شيئا ما لا تستطيع أن تراه بوضوح. كتلة آدمية متحرّكة مترجرجة، تمشي حول الأشجار بدورات شاردة واهنة. غمغمت سولافة دون وعي:

-هـو... إنّـه هـو... ذلـك القـذر وليـس بشـخص آخـر، سـيجارته في فمـه وزجاجـة شـبه خاويـة في يـده.

مـرّ تحـت شـقّتها والشّـقق التـي تحتهـا. لم تسـمعه لبعـد شـقتها المعلقـة بـين الأرض والسّـماء في ناطحـة السّـحاب أيـن تسـكن التـي تسـكن لكـن رأتـه يسـعل مـرّات متعاقبـة.

همست في داخلها:

-يبدو أنّه مريض كورونا.

نزلـت مسرعـة بالمصعـد واقتربـت منـه، فـإذا هـو ينتفـض كعصفـور جريـح بسـبب الرّجفـة، منهـك القـوى تمامـا، متعـرّق بغـزارة، لا يسـتطيع السّـيطرة عـلى توازنـه. رائحتـه نتانـة مطبقـة، لقـد أصيـب بالإسـهال الشّـديد وتـبرّز عـلى سروالـه وبـرازه يتقاطـر أسـفل سـاقيه .

غلـت برأسـها الدّمـاء العربيـة والإسـلامية، دمـاء الرّحمـة بالضّعيـف، ناداهـا الواجـب الإنسـانيّ والواجـب المهنـيّ، تجـاسرت وخاطـرت بحياتهـا:

-أنـت... اذهـب إلى شـقّتك وخـذ دشـا ولا تنـس أن تفـرك جلـدك جيّـدا بالصّابـون، دع بـاب شـقّتك مفتوحـا سـألحق بـك.

وهو يعاني وأنفاسه تكاد تنقطع دون أن يكّف عن السّعال:

-لا بأس برحيق امرأة شابّة قبل أن أغادر، أجمل ما يمكن أن تمنحه إيّاي الحياة في أخريات أيّامي.

-يا هذا.

-أسرع... سآتيك في الحال.

-اسمي جون... جون لا تناديني يا هذا... أووه يا لهنائي بك.

صعدت من جديد بسرعة إلى الطابق الذي تسكن، دلفت إلى شقّتها بسرعة بعد أن أغلقت الباب الخارجيّ. دخلت المطبخ وجّهزت حساء خضار حار ومنكّه بكثير من الثّوم والبهارات العربية المشكّلة. كما جهّزت مشروب ماء البصل والعسل وخلطة الكروية والزّعتر والقرفة والقرنفل والخل الأبيض مع زيت الزّيتون. ثم توجّهت إلى غرفة نومها ووضعت البدلة الواقية من الكورونا والقفّازين والخوذة ونظّارتيها ووضعت ما جهّزته في برطمانات. ثم وضعت معها ملعقة للأكل وملعقة شاي وقارورة معقّم وقارورة صابون سائل و كيس طبّي صغير.

وجدت الباب مفتوحا فدلفت إلى الشقّة التي لم تصادف في حياتها بيتا أكثر فوضوية منها وقذارة منها، سمع خطواتها فناداها بأنفاس

متقطّعة:

-إنّني هنا... هنا في غرفة النّوم يا حبيبتي، أنا حقّا أحلم.

كان جسده العاري كقرد من كثرة ما كسي بالشّعر وكان ذقنه يثير الاشمئزاز، عيناه حمراوان كقطعتي جمر وهو لا يزال يرتجف.

كلّمته بحزم وهي تدخل ما يشبه العود الذي ينظّفون به الأذنين لكنّه أكثر طولا في منخره:

-لا تتحرّك سأجري إليك اختبارا سريعا ضدّ كوفيد١٩.

دون أن يتخلّى عن صفاقته:

-قبّليني قبلة الوداع إذا. أليس الميّت يستجاب قبل رحيله لأمانيه ورغباته الأخيرة. أنظري وسامتي. أنا كنت للتوّ بالحمّام ورائحتي صابونا.

بلهجة حادّة:

-بل رائحتك براز... أنظر الملاءة تحتك، إنّ الإسهال الذي عندك شديد وخطير.

صبّت له شربة الخضار آمرة إيّاه بأن يشربها كلّها ففعل بطواعية

كطفل، ثمّ ناولته حبّة دياريكس قائلة:

-هذه ستفيدك للإسهال أشربها ريثما تمرّ الرّبع السّاعة في الأقل وتظهر نتيجة الاختبار الذي أجريته.

ثم ناولته ملعقة صغيرة من خلطة السّعال قائلة:

-هذه مجرّبة ومفيدة في القضاء على هذه الكحّة الجافّة.

شربها دون أن ينبس بكلمة فأضافت:

-أشرب أيضا هذه الملعقة من خليط العسل والبصل لتقوية المناعة.

بعد ربع استلّت عود الاختبار من غمده وتأمّلته مليّا ثم همهمت بصوت خفيض:

-كما توقّعت.

تلقّف جملتها:

-توقعتي ماذا؟.

-أنت مريض كورونا وعليك الالتزام بالبروتوكول الصّحي والخضوع للعلاج، لا تخرج بعد الآن من بيتك إلى أن تتعافى تماما وقد تطول المدّة. أرجوك لا تخرج كي لا تنشر العدوى من حولك

مـرّة أخـرى، هنـاك عجائـز ومـرضى سـكّري وقلـب وضغـط دم وضعـف مناعـة وسرطـان. لـن يتحمّلـوا الإصابـة بالكوفيـد لأنّ مناعتهـم ضعيفـة، علينـا أن نتحـلّى قليـلا بالإنسـانية ولا نكـون أنانيـون.

ردّ بسخرية:

-ههـه إنسـانيون... هـذه ماتـت مـن زمـن بعيـد، إنسـانيتي قتلتهـا أمريـكا، ماتـت هنـاك في بلادكـم، في العـراق.

-ياه..

-نعم... نعم للأسف.

مدّت إليه حبّتي دواء قائلة:

- إنّهـما مـن عائلـة البراسـيتامول سـيفيدانك والآن اسـتودعك الله، آملـة مـن رحمتـه أن يشـفيك.

-سأرجع في المساء لأبيت ليلتي هنا، أخاف تعكّر حالتك.

وهو يغالب الوجع في صدره وأمعائه و يترجم مشاعره:

-عـليّ القـول أنّـك الأجمـل مـن كلّ فتيـات الدّنيـا خارجيـا وداخليّـا بطيبتـك.

-أحسّت بأنّه ولأوّل مرّة لا يداهن ويتكلّم صادقا.

فقالت مترجمة حاله:

-»تموت مع المرء الهموم ولن ترى عكس الرّدى من علّة العيش شافيا».

سألها:

-ماذا قلتي للتّو... هل تعيّرينني بلغتكم؟أنا أفهم منها الكثير وأحفظ بعض أشعاركم حتّى، ألم أقل لك عشت ردها لا بأس به في العراق.

ردّت بجفاء:

- هذه سنتكلم عنها لاحقا، همّي الآن محاولة إنقاذك ممّا أنت به، الكوفيد أخذ الملايين حول العالم، طبّق التّعليمات وأشرب الدّواء في وقته وتغذّى جيّدا. لا يزال من الشّربة الكثير، وبالثّلاجة بعض الفاكهة، تناول منها واشرب الكثير من الماء. تركت إليك الشّفاء، سأرجع ليلا لأطمئنّ عليك وأعيدك ثانية.

بحزن:

-ما أنبلك... إلى اللّقاء.

خرجت تتنفّس الصّعداء من بيت لم يشعرها إلاّ بدوّامات الإحباط وبقبح العالم وقذارته بمن وما فيه.

نزعت بدلة الكوفيد، رمتها في كيس بلاستكي أحكمت غلقه إثر ذلك، ثّم توجّهت إلى الحمّام. غسلت يديها مليّا بالماء والصّابون وغسلت الصنبور جيّدا و ذهبت إلى قفل باب الشقّة فغسلته وعقّمته بعد ذلك رجعت إلى الحمّام.

وتمدّدت على طولها بالمغطس وأخذت حمّاما منعشا بماء نكّهته بعطر الخزامى وماء الورد والكاليبتوس. بعد أن جفّ جلدها وشعرها لبست صدرية حمراء، وأقراطا زرقاء، وسروالا أزرق. رفعت شعرها بيديها، ثم ربطته على هيئة ذيل حصان. هي راضية عن نفسها ومرتاحة البال، لأنهّا تعيش برقيّ سلوكها ورفعة أخلاقها. هذا شعورها الدّائم عندما تقدّم مساعدة لإنسان هو في حاجة إليها ولم يطلبها، كما أنّ رتابة الأشياء قد غابت في يومها.

نظرت في المرآة فشعرت أنهّا اليوم فقط استرجعت ملامح وجهها القديم البريء، وجهها الذي تركته هناك وراء البحار. في بعشيقة الرّوح والمنى، على صفحة المرآة لاحت الأشواك النّابتة في كلّ مكان من وجهها، لاحت الأشواق والذّكريات بحلوها ومرّها.

على مائدة الزّمن الغادر كلّ الطّيور الجوارح أكلت من لحمها وهي الآن تحمل رفات أيّامها في تابوت أسرارها.

عندما ذهبت إلى قاعة الجلوس وأخذت مكانها على كنبة أمام التّلفاز مسترخية على عدّة وسائد، كان ذراعاها الأملسان يشعّان كقطعتي رخام صاف من كلّ الشوائب. في الخارج كانت الظّلمة في دبيب بطيء إلى النّوافذ، أعجبها ترسّبها فوق سطوح المنازل ذات الدّور الواحد.

سكبت روحها العطشى للفرح في فنجان قهوتها اللّذيذ، كان الفرح ساطعا في قلبها كشمس الصّيف. بعض الغيوم الحمراء في الأفق البعيد، مطر خفيف بدا يهطل بخفّة في الخارج وفوق بعض الأسطح الخفيضة المغبرّة والمنازل ذات الأسطح الخفيضة نادرة جدّا في نيويورك. لكن سولافة بحكم سكنها في حيّ شعبيّ يسكنه العرب والآسيويون والأفارقة كأغلبية تراها كثيرا من نوافذ شقّتها. ماءت القطة الفضّية الفرو مطالبة بالطّعام، أعطتها لها سولافة في صحن صغير بعض الخبز المغمس بالحليب، ثم مسحت بحنو على ظهرها ورأسها. فماءت القطّة ثانية كرسالة رضا وحبور. صوت راديو صغير مثبّت على موجة إذاعة صوت العرب.. الجزائرية وردة القلوب كما تسميها

تغنـي رائعـة العيـون السّـود:

«وعملت إيه
فينا السنين عملت إيه
وعملت إيه
فينا السنين عملت إيه
فرقتنا لا.. غيرتنا لا
ولا دوّبت فينا الحنين
السّنين
لا الزمان ولا المكان
قدروا يخلّو حبّنا
ده يبقى كان
يبقى كان الزّمان..
وبحبك والله بحبك
والله والله والله بحبك...
قد العيون السود أحبّك..»

سرّتها الأغنية وسرّتها وردة بروعة صوتها، تقدّمت من الرّاديو، رفعت صوته قليلا شاعرة بمزيد البهجة والتّفاؤل.

العاشرة مساء بدء النّعاس يداعب عينيها، مسّدتها بإعياء وهمّت بالمغادرة إلى فراشها. فجأة ارتعدت فرائصها رعبا، همهمت:

كيف تأخّرت عنه كلّ هذا الوقت؟أوف... هو مريض كوفيد١٩ ووحيدا في شقّته. حالا سأذهب إليه أرجو أن لا أجد حاله قد تدهورت.

تناولت بدلة الوقاية من الفيروسات، لبستها مع الخوذة الشفّافة واقية الشّعر والكمامة والقفازين وكيسين بلاستيكيين ألبستهما لخفّيها.

أخذت صابونها المطهّر، والمعقّم، وقفّة بها بعض الأغراض، واللّوازم كالدّواء والفاكهة للمريض.

وجدت باب شقّته مواربا كما تركته مساء لمّا دلفت للدّاخل انغلق وراءها محدثا صريرا. تعثّرت بالسّجادة الوسخة، لحسن حظّها لم تسقط، تطلّعت إليه بصمت، كان مدفونا بوحدته. لا يزال كلّ شيء مثلما تركته، عدا المحارم الورقية المجعّدة المنتشرة بكلّ مكان. يحدّق في الفضاء بعينين فارغتين من أي معنى يمكن أن يفسّر، كأنّ التّقويم الزّمني وقف عند قدميه ورفض التقدّم أو التّقهقر. محنّطا في لحظة واحدة، محدّقا أمامه وقد أصابه الخرس.

أشرعت باب ونافذة غرفته على مصاريعهما .

اقتربت منه وقد رأت عجزه في عينيه:

-كيف حالك؟.

بصوت واهن:

-أفضل من المساء.

بحزم:

-نعم لاحظت هذا لأنّ الإسهال قد كفّ. دعني أرى حرارتك، أوف أربعين حرارتك مرتفعة جدّا، عليك أن تتغذّى جيّدا وتأخذ خافض حرارة.

سكبت له صحن حساء بعد أن سخّنته في مطبخه الفوضوي. أصرّت أن يكمّل كامل الكمّية، تلكّأ قليلا، لكن أمام تشجيعها وإصرارها أنهاها. تناول دواءه وجرعتين من خلطة البصل والعسل الخاصّ بالمناعة وخلطة السّعال المكوّنة من الزّعتر والكروية والقرفة والقرنفل بعد سحقهم وإضافة زيت الزّيتون والخلّ الأبيض. قالت مبتسمة:

-أرى أنّ نوبات السّعال قد خفّت حدّتها، بعد هذه الجرعتين

ستنسى السّعال تماما. أخمّن أنّك تتساءل كيف لطبيبة درست وتشتغل في نيويورك التّفكير بالطّب البديل؟.

أجابها برأسه موافقا:

-هذه الخلطة أقصد خلطة الزعتر والكروية والقرنفل والقرفة مع زيت الزيتون والخل ورثتها أمّي عن جدّتي عشرية . كانت جدتي قد استعملتها في بداية القرن العشرين عندما فتك وباء الأنفلونزا بأغلب الصّغار. كانت قد فقدت اثنين من صغارها، صنعت الخلطة بغريزتها، الخلطة التي أنقذت بقيّة أبنائها وأبناء ضرّتها وأبناء إخوتها وأبناء عمومتها. إلى آخر يوم من حياتها كان ذلك دواءها لعلاج برودة الشّتاء والسّعال مهما كان شديدا. بالطبع أمّي خيرية كانت تستعملها أيضا. بطبعي تذكّرت الخلطة في بداية جائحة كورونا وهي من ضمن مكوّنات مطبخي ومن حسن حظّك إنّها عندي.

من شدّة الوهن لم يشأ أن يتقدّما في الحديث، اكتفى بالتّحديق في وجهها بجمود. أمّا هي فجلست القرفصاء على كرسيّ كنبة، بنيّ مغبر بعد أن عقّمته وطرحت عليه بطّانية نظيفة أتت بها من شقّتها وراحت تراقب انتظام تنفّسه وحرارته.

كلّ ساعتين تعطيه الدّواء حسب حاله الصّحية المستجدّة وتصبّ

لنفسها فنجان قهوة خالية من السكّر حتّى لا يغلبها النّعاس وحال مريضها تعدّ نسبيا حرجة . كما أنّ كورونا لا يؤتمن لها جانبا، إذ يمكن أن تعكّر صحّة المريض فجأة وسريعا ودون مقدّمات. بطيئا مرّ اللّيل، كانت السّاعة بيوم، ا كانت روح سولافة غارقة في ظلمات عميقة. حين أطلّ فجر اليوم التّالي، كانت منهكة من ليلة أمضتها جالسة على كرسيّ. من شدّة ما هي متعبة لم تقوى على الوقوف. تحاملت على نفسها وقامت إلى حقيبتها. صبّت لنفسها كأس شاي، تناولت معه قطعة معمول محشوّة بالتّمر والفول السّوداني المحمّص والسّمسم.

أحسّت بوخز في كلّ مفاصلها ولتحريك الدّم الجامد في عروقها من القرفصة لليلة كاملة على كرسيّ كنبة صغير. أخذت تدور بالغرفة جيئة وذهابا، لما تحرّكت بالرّواق، لاحظت أن طبقة الصّدأ تعلو مقابض الأبواب والنّوافذ وأنّ شقّته في غاية الإهمال، ملابسه الشّتوية والصّيفية كوّما في كلّ مكان.

أرادت أن تخرج إلى الشّرفة الأمامية، فلفت انتباهها باب غرفة مفتوح، أطلّت برأسها. اتّسعت عيناها بذهول وكتمت صرخة كانت على وشك الخروج. الغرفة مشغل صغير لنحت عرائس متراصّة في خزانة بلا أبواب ونشارة عظام مكدّسة فوق طاولات ومناضد. لم

تكـن بحاجـة إلى كثـير مـن الفطنـة لتتوجّـس شرّا ممّـا اكتشـفت. لم تخطـو خطـوة واحـدة للدّاخـل فقـد تربّـت بـأنّ للبيـوت حرمتهـا. أخلاقهـا تمنعها مـن التّجـوّل في غـرف البيـت والتّفتيـش في أغـراض مريـض مسـتلق عـلى فراشـه أمّنهـا عـلى نفسـه وبيتـه. صـارت السّادسـة صباحـا، رجعـت إلى حيـث مريضهـا مشـتّتة الذّهـن، أكثـر ريبـة مـن قبـل. تفقّـدت حرارتـه، فوجدتهـا قـد انخفضـت إلى السّـابعة والثّلاثـين والنّصـف. حمـدت الله وأعطتـه فطـوره ودواءه ووضعـت كلّ مـا يحتاجـه مـن أغـراض ومـاء ومـأكل إلى جانبـه وفي متنـاول يـده. توجّهـت إلى شـقّتها لتأخـذ حمّامـا، وتنعـم بقسـط مـن الرّاحـة بعـد ليـل طويـل ومنهـك.

تتابعـت أيـاّم عـشر وهـي عـلى نفـس الوتـيرة مـن شـقّتها إلى شـقّته ومـن شـقّته إلى شـقّتها واللّيـل تقضيـه فـوق كـرسيّ الكنبـة. لكـن سرّ تلـك الغرفـة الخارجيّـة التـي تفتـح عـلى الشّرفـة ظـلّ يحيرّهـا... عرائـس منحوتـة ونشـارة عظـام.

الفصل الثّاني

شتات الرّوح

سمعت على الباب طرقا خفيفا، سارت بخفّة في الممرّ الذي يقود إلى باب الشقة. سوّت شعرها بعد أن خلّلت أصابعها في خصلاته. سوّت فستانها السّاتان الأحمر الرّقيق الواشي بتفاصيل جسدها. تقدّمت في هدوء وهي تجيل نظرها في المكان. أدارت مقبض الباب وفتحته بلطف. دخل وقد ظهر الانشراح على أساريره.

طوّق كتفيها بيديه هامسا في إحدى أذنيها:

- هنالك الكثير من الأغاني التي نسيتها أودّ أن أسمعها منك.

مقاومة للهاث أنفاسها:

-وعدتك بأن تسكن أحداقي وفعلت.

بنظرة صبابة في عينيه:

-أنصتي إلى لهاث وجعي ووجدي...

مهمهمة في نشوة غامرة حملتها فوق الشّهب وعلى ظهر قوس قزح:

-عدت إلى الحياة بخسائر كثيرة...

مفكّرا بالظّلم الذي حاق بها:

-أزيحي هذا الهمّ عنك.

تغالب مطر عينيها:

-لم أكن بخير لوقت طويل.

بابتسامة جميلة وبتلهّف كبير:

-»كلّ يوم أزورك في اللّيل

أروي عليك منامي الأخير

ونجلس حتّى يجفّ الكلام»[1]

وهما يجلسان على الأريكة في الصّالون شردت منها كلماتها:

(١) غسان زقطان: استدراج الجبل،١٩٩٩،ط١،ص٧٢.

-أعيتني الأيّام وأثقل الزّمان كاهلي.

تواصل حديثهما بين الرّقص على أوتار الحبّ والمشي على رماد نيران الألم الحارّ:

-سولافة... سولافة روحي وعمري... قولي لكحل عينيك الواسعتين الجميلتين أن يفرج عني. إنّني أسيره منذ أمد بعيد. اسألي اسمينا المخربشين على جذع شجرة الدّاماس الكبيرة هناك. سيخبرانك بقصّة كحلك الذي يختلف عن كحل كلّ ما رأت عيني من النّساء.

رنين أساورها... يقهقه بوقاحة وراء كتفيه:

-أبحث عن نفسي القديمة.

-كيف أحبّك بكلّ هذا العنفوان؟.

-أحتاج مساندتك كي أعود إلى ذاتي. إلى سولافة القديمة.

-رغم أنّني لم أكن سبب آلامك. أعتذر عن كلّ شيء.

-ليس لي على ظهر الأرض غيرك.

- خطى عمري البريء ذُبحت

-ساءلت عنك النّجوم والرّيح والأنواء... طيفك معي يحوم

حـولي ليـال نهـارا.

-كلّ مـا في هـذا الكـون مـن دونـك هبـاء و هـراء. كانـت الرّحلـة طويلـة وشـاقّ. لم أعـد أتذكّـر كيـف بـدأت وكيـف انتهـت.

-نبـض روحـي... أنـت رقيقـة وسـاحرة كنغمـة منبعثـة مـن أوتـار الجنّـة.

-الوجه الآخر للقصّة لا تعرفه.

-أدرك وأعـرف دون أن تتكلّمـي... عينـاك قالتـا كلّ شيء مـن أوّل لقـاء... يحـزّ في نفسي ويحزنني كثيرا وقسـم ظهـري مـا وقـع. ظلمتـك كثيرا هـذه الحيـاة. حمـدا وشـكرا لله عـلى العثـور عليـك أن طالـت سـنوات فرقتنـا وانقطـاع أخبـارك لمـدّة طويلـة.

-بعت نصف أنوثتي ووهبت نصفها لأكون لك عروس سكّر.

-أنـت لم تبيعيهـا... حاشـاك مـن هـذا الدّنـس. أنـت أطهـر مـن مـلاك.

-أنـا اغتصبـت عـدّة مـرّات وأجـبرت عـلى البغـاء، رائحـة الدّنـس تفـوح منّـي.

-لا لا... لم يتغـيّر شيء بالنّسـبة لي... لا تـزالي سـولافة النّقيـة البريئـة

الشّريفـة. انـسي أرجـوك. هـذه الأفـكار والمشـاعر المقيتـة. يكفنـا مـا ضيّعنا مـن العمـر.

-نسيت إنّني امرأة لكثرة ما تألّمت أنوثتي..

-مررنـا بأعـوام قاسـية جـدا... نعـم... لكنّنـا سـنتجاوز هـذا. ثقـي بحبّنـا الكبـير.

-كانت مليئة بالحزن والتّعب.

-ملاءة عمري أفرشها بين يديك الرّقيقتين الجميلتين.

-رغـم أنّ الأيّـام قـد نثرتنـي كحفنـة تـراب، سـأكون ملاءتـك التـي ستفترشـها وتغطيـك بالحـبّ والوفـاء والعطـاء.

-ترجّلي عن صهوة الخيبات والانكسارات إذا.

-في درج قلبـي كنـت أخبـئ لـك كلّ يـوم وردة حـبّ سـاحرة الجـمال، دافئـة.

-في الأيّام الأخيرة من كلّ عام أحاول ألاّ أعبر إلى العام القادم.

كان يطالعهـا بنظـرات ملؤهـا الشّـغف. كبّلهـا بوثـاق الفـرح وهـي تلاحـظ غبطتـه بلقائهـا. قطعـت حبـل الصّمـت محاولـة التشـبّث بكبريائها:

-ملامحك منقوشة بداخلي.

-أنت سولافتي، ماسة صندوق صدري المغلق على الدّوام.

- اجمع شتات ما تبقّى مني.

وخيط من الدّخان يتصاعد من بين شفتيه:

-كلّ الأصوات صمتت بداخلي إلاّ صوت الحبّ.

كان بصره مشتّتا بين نهديها وشفتيها. لاحظت ولهه فأعجبها ذلك. نظرت إليه هامسة في طفرة من السّعادة:

-بقلبي شغف آخر لا أعرف اسمه أو كنهه. مضى زمن على هذا الشّعور الرّائع. إنّ قلبي يرقص من الفرح.

مشاكسا:

-سأضبط إيقاع جسدك بأوتاري ونغماتها. لنا متّسع لحلم آخر.

في ألم قبل أن تعظّ على شفتها السّفلى متحسّرة:

-أكثر من خمس وعشرين شمعة لم نستطع أن نطفئها.

مواسيا:

-لا نزال بعد في ربيع العمر.

ساخرة:

-نعم... صحيح فقط نحن على مشارف الخمسين.

معارضا:

-بل قولي فوق الأربعين بقليل وسنتزوج وستنجبين لي بنتا جميلة مثلك بعد أشهر. أعلم أنّك قريبة من سنّ يأس المرأة. لكن العلم تقدّم، لم يفوتك شيء. ستكونين أروع أمّ وأجمل أمّ.

مهمهمة:

-نحن نراوغ الحزن من يوم لآخر.

رد بحزم:

-لا جزن بعد اليوم. لا بكاء ولا دموع. فقط الحبّ ثم الحبّ ثمّ السّعادة الطّاغية يا حلوتي. أنظري الأفق تبسّم وترنّم.

كانت السّاعة قد دقّت الحادية عشرة. أحسّت بتسارع دقّات قلبها في إثارة. سحبت نفسها من حضن ياسر وهي تزرّر قميصها. وقد بلغ منها الوهن مبلغه. خطت في ارتباك إلى داخل المطبخ، مقتربة من

حوض الغسيل. لحق بها ياسر وقد أحسّ بما حاق بها. قال مغازلا:

-صهوة أنوثتك الجامحة سأمتطيها بشغف، ومسالة البكارة غشاء لحميّ لا يهمّني. أنت اغتصبت

وأهنت وأذللت وظلمت وأنا لا أنظر إليك كعروس ناقصة. بل أنت كلّ البكارة وكلّ عذرية العالم وكلّ شرفه.

وهو يخضها بين يديه:

-أنظري إلى... أنظري إلى سولافة... هل هذا واضح؟. لا تفكّري بهذه مرّة أخرى ولا تنغّصي حياتك وحياتي. كفانا ما عانيناه وما لاقيناه من الظّلم والحيف والعذاب والتشرّد والألم والحزن.

في خفر وهي تتّجه إلى الثّلاجة:

-حان وقت الغداء. سأخرج الطّعام الذي حضّرته صباحا ووضعته في علب توبر وير الحافظة. سأسخّنها حالا. عد إلى الصّالون، أو اذهب لتغتسل. ثوان ويكون الطّعام على المنضدة. أعتقد أنّك جعت مثلي.

ردّ بفرح طفل:

-حاضر... اشتقت للأشياء التي تجمعنا. كنّا كأروع حبيبين

لا نفترق إلاّ لنلتقي. لكن لا تقلقي سنطارد فراشات الماضي البعيد كطفلين.

مازحا:

-أنظري لم تتقدّم بي السّنون... صار شعري رماديا فقط... فقط رماديا.

جلس إلى المنضدة، ظلّ يلحظها في ترقّب في حين ظلّت صامتة وهي تتحرّك بين قاعة الجلوس والمطبخ، ينصت إلى وقع خطواتها السّريعة على البلاط. وضعت كوبي شاي ساخن على المنضدة. ثمّ أتت بحساء شهيّ، طبق لحم ضأن مشكّل، سلطة خضراء وسلطة مشوية، وحبّتي موز وقارورة ماء وكأسين من البلّور.

وقد نال من نبرتها بعض الارتباك:

-لو كنت أعلم بمجيئك لجهّزت وليمة على الطّريقة الشّرقية ولكن طعامنا اليوم كما ترى، سريع التّحضير على الطّريقة الغربية.

بزهو:

-سولافة البعيدة القريبة الملتصقة بجدار الرّوح. أنا ناقص دونك. لا أدري ماذا تفعلين بي كلّما مررت بخاطري. يليق بك أن تستثني عن

الأخريـات. ثمّـة شيء في ملامحـك يدهشـني، يربكنـي، ويرديـني قتيـلا. الهـدوء والمزاجيـة الخجـل والبسـاطة. تبعثرينـني وترتّبينـي عـلى نحـو ملفـت للغايـة. عـلى الرغـم مـن مـا في ملامحـك مـن خـدوش ونـدوب وخيبـات ومـا مـررت بـه مـن شـدائد وأزمـات ومحـن، أنـت مدينـة حـبّ.

ضاحكة:

-أريد أن أحتفي بك على طريقتي... أنت الوطن وأنت السّكن.

برومانسية وثقة:

-لنـا متّسـع لحلـم آخـر... أعتـذر عـلى اقتحـام خصوصيتـك دون موعـد مسـبق.

كان الطّعـام طيّبـا والحديـث ممتعـا وكانـت العيـون تتعالـق في شـغف كبـير. كان يومـا لا ينسـى. حالمـا وضـع يـاسر السّـكين والشـوّكة عـلى طـرف طبقـه جمعـت الأواني، وضعتهـا في الحـوض لغسـلها. ثـمّ مسـحت المنضـدة بقطعـة إسـفنج. بينـما كان يـاسر ممـدّدا عـلى الأريكـة يرقبهـا مـن بعيـد متهـجّ تفاصيلهـا. بـصره مشـتت بـين نهديهـا وشـفتيها.

رجعت من المطبخ وكأنّها تذكّرت أمرا جللا:

-ياسر ما رأيك برحلة لإسبانيا؟.

مستفسرا:

-إسبانيا.. ؟.

-نعم مرتع الأجداد..

-ما الذي أتى بهذا المشروع الآن.. ؟.

-في الحقيقة لي صديق قديم من سورية.. الفنّان التّشكيلي عبد القادر خليل. ألا تعرفه؟.

-آه... آه.. تذكّرته... أليس من حلب.. ؟.

-نعم هو من حلب، لكن سافر إلى إسبانيا وتزوّج هنا وأنجب ابنته الوحيدة. ثمّ عاد إلى حلب من جديد. لكن الحرب السّورية شرّدته من جديد وعاد إلى إسبانيا بعد أن خسر كلّ لوحاته وتركها في سورية. فأحرقت ونهبت ولم يبق منها شيء. بالرغم من ذلك وقف على رجليه من جديد كفنّان عالمي.

-نعم... نعم ذكرته... التقيته في أكثر من معرض... أقدّر فيه وفائه لزوجته. الرّجل بعد خمسين سنة زواجا يقول إنّه مازال ينظر إلى زوجته بنفس العيون التي نظر إليها في أوّل لقاء.

صحيح في مهاتفتي له إحدى المرّات منذ سنوات خلت وبسؤالي

عـن أهلـه، روى لي مـا دار ببينـه ووالدتـه ذلـك اليـوم حيـث قـال:

-إنّ والدتي كانت تقول لي وأنا بسنّ الستّين من عمري:

-متى ينتهي شهر العسل في حياتك الزوجية؟.

فكنت أقول لها:

- لا تنتهي حتّى الممات. الحياة بدون حبّ ليست حياة.

كان يحـبّ الحيـاة وكان يميـل إلى الفـرح والموسـيقى ويذهـب إلى الأعـراس أينـما وجـدت. كانـت أحلامـه أكـبر مـن الكـون كلّـه. درس بأكاديميـة الفنـون الجميلـة بحلـب. في بدايـة الشّـباب سـافر لوحده إسـبانيا دون معرفـة مسـبقة لأيّ أحـد هنـاك ودون أن يعـرف البلـد التـي قصدها ولا لغتهـا. تعـرّف يـاسر كـم هـي الغربـة صعبـة، عانـى كثـيرا وتعـب كثـيرا. هـو الـذي ابتعـد عـن الوالديـن والأهـل. فـارق وطنـه إلى بلـد يجهـل لغتـه وعاداتـه، مناخـه، تقويمـه الزّمنـي. لكـن حبّـه للعلـم سرعـان مـا أنقـذه بعـد أن تعلّـم اللّغـة الإسـبانية وأجادهـا بفـترة بسـيطة مـن الزّمـن.

وصـل إلى إسـبانيا بعـد سـفر طـال أسـبوع في الباخـرة. مـرّ بـيروت. ثـمّ الإسـكندرية ثـمّ نابـولي في إيطاليـا ومرسـيليا في فرنسـا ووصـل إلى برشـلونة ليذهـب منهـا إلى مدينـة فالانسـيا. وصـل في أكتوبـر مـن عـام سـبعين مـن

القـرن المـاضي إلى تلـك المدينـة الجميلـة. عـاش سـنة وأشـهر مـع عائلـة محترمـة تملـك ثلاثـة أولاد احتضنتـه وعلّمتـه اللّغـة. مـازال يحافـظ عـلى هـذه الصّداقـة معهـم وكأنّـه مـن نفـس العائلـة .

-أنـا أيضـا أعـرف قصّتـه النّضاليـة . فقـد سـافر إلى مدينـة بلبـاو لأجـل دراسـة الطـبّ ووجـد تغـيرا آخـر. حيـث انتقـل مـن شـاطئ البحـر الأبيـض الدّافـئ إلى شـاطئ المحيـط الأطلـسي البـارد. اختـلاف المنـاخ والمناظـر الطّبيعيـة كانـت كبـيرة وعظيمـة. حتـى اختـلاف شروق وغـروب الشّـمس كان كبـيرا. وفي نهايـة العـام الـدّراسي تـزوّج مـن هـذه المدينـة. ثـم انتقـل إلى مدينـة كبـيرة لأجـل العمـل مـع الدّراسـة لأنّـه أصبح ذوا عائلـة ومـن واجبـه أن يعمـل. في برشـلونة لم تسـمح لـه الجامعـة دراسـة الطـبّ لأنّـه مغـترب. لهـذا درس هندسـة علـوم إداريـة، مـع اختصـاص في المؤسّسـات السّـياحية والـشركات العامّـة. انتهـى مـن هـذا الاختصـاص في السّـنين المحـدّدة علـما أنّـه لم يـترك الطـبّ في بلبـاو وكانـت الجامعـة تبعـد عنـه سـبعمائة كيلومـتر. كان يعمـل في شركـة لتسـديد كلفـة المعيشـة والإيجـار ةتسـديد مصاريـف زوجتـه وأولاده. لّما تخـرّج مهندسـا أصبـح له طفـلان بنـت وولـد. لكـن فيـما بعـد تـوفى الطّفـل واكتفـى ببنتـه الوحيـدة.

بإعجاب أضافت سولافة:

-خلال دراسته الجامعيّة لم يبتعد عن الفنّ بل كان ملتزما بالرّسم وبدراسة الفنّ على مستوى الخاصّ وعلى الصّعيد العلمي.

بافتخار وابتسامة رافعا صوته مشاكسا:

-هو الحلبي يابنت، والحلبي سوري وسورية شقيقة العراق وبنت قلبها .

لم تعلّق سولافة مكتفية بابتسامة وهي تواصل حديثها:

-برشلونة مدينة كبيرة. مدينة العلم والنّجاح. مدينة الفنّ والفنّانين. منذ أن أنهى دراسته تمّ تعينه مدير شركة سياحية كبرى في المحافظة. فاتّسعت دائرة معارفه بكلّ أنواع المجتمعات والأمم من جميع القارّات.

تنحنح ياسر مضيفا لحديثها:

-وفي وقت الإجازات كان يذهب إلى زيارة المدن في إسبانيا من الجنوب إلى الشّمال ومن الشّرق إلى الغرب. تعرفين بلا شكّ كم هي جميلة إسبانيا. زار جميع مدنها، وزار متاحفها وأثارها القديمة والعربية. غرناطة، أشبيليا، قرطبة، طليطلة، مدريد، بلباو، سان سيباستيان، سرقسطة، صوريا، سالمنكا بلد الجوز. الجزر الاسبانية سانتندير وباقي

المحافظات. في كلّ مدينة ترك جزءا من قلبه كما كان يقول. كلّ مدينة تعرّف على آثارها ومتاحفها وكشفت له بإغراء عن مفاتنها.

عاد إلى بلباو بعد عشر سنوات وهناك عاش سنينا طويلة. أنجز شركة خاصّة وأصبح يخطو خطوات كبيرة في عالم الفنّ وفي المعارض الفنّية. وبدأ يخطّط للعودة إلى سورية. بنا بيتا كبيرا ومرسما في مزرعته هناك. لكن لأجل العمل والشّركة لم يغادر إسبانيا بل كان يذهب إلى سورية ثلاث مرّات في السّنة أو سفرة واحدة يبقى بها ثلاثة أشهر.

رن الهاتف... تن تن تن.. تن تن تن..

-هتفت سولافة... يا للصدف... إنّه هو... لا شكّ أنّه سيؤكّد على دعوتي ويتأكّد إن كنت سأحضر معرضه أم لا. انتظر حتى اكلّمه.

-مرحبا أستاذ خليل.

-حيّاك الله آنسة سولافة.

-حيّاك الخير وصافحتك الصّحة صديقي الطّيب... كيف الحال؟.

-بخير والحمد لله.

-الحمد لله... ماذا أقول؟. كنت وخطيبي ياسر في سيرتك.

-ياسر... هل التقيتما... هنيئا لكما ؟... أخيرا... لقد تعذبتما.

-نعم... الحمد لله.

-ماذا كنتما تتحدّثان عنّي إن شاء الله خيرا؟.

-قلت الكثير وكنت سأقول لياسر أنّك من وجهاء حلب.

-نعم... (بتواضعه) والدي كان من زعماء قومه ومن المعروفين. كان يمتلك أراض زراعية شاسعة وكثيرا من الحيوانات كما كان له باعا في التّجارية.

كنت أعيش في إسبانيا وزوجتي. نقضي أكثر الأيّام إلى جانب والدي ووالدتي وإخوتي. المنزل كبير يتألّف من طابقين. الطّابق الأعلى للسّكن والطّابق الأسفل عبارة عن صالة كبيرة جدّا .

في هذه الفترة الزّمنية من نهاية القرن الماضي وبداية القرن واحد والعشرين كانت زوجتي تعيش في سورية وكنت أعيش وحدي بإسبانيا. حيث رجعت إلى الجامعة ودراسة الفنون التّشكيلية والنّقد التشكيلي من جديد في مدينة بلباو وفي متحف بلباو للفنون الجميلية.

-نعم قلت لياسر أنّك حقّقت شهرة كبيرة.

-بفضل توفيق من الله واجتهاد منّي وتضحية من عائلتي أنجزت

معارض دوّلية كثيرة. شاركت في المعارض الدّولية في عدة عواصم أوروبية كروما، لندن، باريس في متحف اللّوفر وفي بروكسل ومدن أخرى عديدة. كما عرضت بعامّة المدن الإسبانية. ثمّ أصبحت أعرض في كلّ زوايا العالم. أنجزت في هذه الفترة عددا من المعارض الفنّية في سورية. كانت كلّ أوقاتي محجوزة لإدارة العمل، للدّراسة وللمعارض التّشكيلية.

سولافة وهي تنظر في وجه ياسر مبتسمة لمهاتفها:

-ولك باع أيضا في النّقد الفنّي:

أجابها مؤيدا:

-بعد أن نلت الشّهادة في النّقد الفنّي بدأت الكتابة عن الفنّ التّشكيلي في منابر الفنّ في إسبانيا وخارج إسبانيا، ومنها في مختلف الصّحف.

-حدّثني صديقي عبد القادر عن بداية الثّورة السّورية. أعرف أنّك كنت شاهدا على بداياتها.

-ذهبت إلى العيش بجوار أمّي وكان ذلك في بداية عام ٢٠١١. كنت في الطّائرة حين سمعت ببداية الرّبيع العربيّ في تونس وأنا ذاهب

إلى سورية. حين وصلت إلى منزلي بحضن الوطن وحضن الأمّ شعرت بالسّعادة. لكن كانت أيّامًا قصيرة وبدأت الحرب وبدأ العدوان على سورية. تذكرين... بدأت الحروب الأليمة. مع هذا اتفقت أنا وعائلتي على البقاء في الوطن. لم نرض أن نغادر الأهل. خاصّة لمّا رأينا هجرة النّاس إلى وجهات مجهولة. تمسّكنا بالبقاء. بعد مضيّ الأسابيع أصبحنا شاهدين غير مرغوب بهم. أصبحنا شبه أعداء لجميع الأطراف المعنية.

كانت الضّربات الإرهابية والنّظامية تتوجّه إلى منزلي. لم يبق أحد في القرية حيث نسكن والقرى المجاورة. فقط أنا وأمّي وأخي الأصغر منّي. كنّا عبارة عن موقع للقصف في اللّيل والنّهار. لا ننام ليلا ولا نهارا.

محاصرون في البيت دون هاتف ودون كهرباء، دون الخبز، ودون أيّ صلة مع الخارج، وهكذا مضت أيّام طويلة وأشهر. صامدون على قسوة الإرهاب وقسوة النّظام. في كلّ يوم كانوا يتسلّلوا إلى المنزل كي يخرجونا، ليبقى المنزل بما فيه لهم.

واسته سولافة بنبرة مليئة بالحزن والأسى:

-ياهه... لقد عانيت الكثير صديقي.

أضاف:

-قتل أخي بقصف صاروخ قضى على حياته وأصيب ولده بشظايا القذيفة. خرجت من البيت كي أواري أخي التّراب وكي أسعف الطّفل بالمستشفى.

دون صبر سألته سولافة:

-ماذا جرى إضافة لهذا كله؟.

بحزن شديد وصوت مختنق:

-لم تكفّ الأطراف المعنية عن قصفي بالسّلاح الثّقيل. بعد قليل أوقفوني بأحد الحواجز أفراد من رجال داعش ورافقوني إلى المستشفى وأخذوني معهم بعد أن وصل الطّفل للمعالجة.

بجزع تمتمت:

-داعش؟.

-نعم ولم يسمحوا لي بأن أدفن أخي. أخذوني للمحاكمة. تنقّلوا بي من مركز إلى مركز، ومن محكمة إلى أخرى ساعات طويلة.

-كيف نجوت منهم ؟. (مستفسرة مهاتفها):

-حالفني الحظّ أن أتعرّف علي أحد أصدقاء الطّفولة وكان يعرف أحدهم. قال لهم:

-كيف تعتقلون أكثر النّاس محبّة للسّلام ؟. كيف تعتقلون من ليست له أيّ صلة بالنّظام وبأيّ حركة سياسيّة؟. هو إنسان يعيش في إسبانيا منذ أكثر من أربعين سنة فأطلقوا صراحي.

تنهّدت سولافة كمن وضع حملا ثقيلا، ثم أردفت:

-الحمد لله... الله وعباده يحبّونك:

استدرك:

-لم أكن سعيدا لأجل حريّتي بل لأنّني سأعود إلى منزلي الذي تركت به زوجتي وبنتي الوحيدة وأمّي.

أضافت سولافة:

-هذا جيد.

واصل وكأنّه لم يسمعها:

-حين وصلت إلى المنزل أطلقوا علينا صاروخا. سقط بيني وبين زوجتي التي كانت تنتظر وصولي. المعجزة أنّه لم يصبنا رغم أنّنا كنّا

عـلى بعـد مـتر مـن سـقوطه. لكـن حطّـم المنـزل وفتّـت الحديـد قطعـا صغـيرة. معجـزات كثـيرة رأيناهـا بـأمّ أعيننـا خـلال تلـك السّـنين. ذلـك اليـوم ولدنـا مـن جديـد والحمـد لله .

براحة ردّدت سولافة:

-الحمد لله.

همهم:

-ليس هذا فحسب.

ردت:

-ماذا بعد؟.

في ألم وأسى كبيرين:

-في ذلـك اليـوم بعـد منتصـف اللّيـل أتـى عـشرون عنـصر مـن داعـش مدججـون بأسـلحتهم المتطـوّرة. داهمـوا منـزلي وأجـبروني وأهـلي عـلى الخـروج بقـوّة السّـلاح.

بحزن قالت سولافة:

-يا الله.

تابع:

-هكذا خرجت ليلا. تركت كلّ أملاكي وأموالي ومنزلي ومزرعتي وقريتي ومرسمي وثروتي الكبيرة من الفنّ التّشكيلي ومن إنتاجي الفنّي الخاصّ الذي كان يزيد عن أربعمائة وأربعين لوحة وعن مائة وخمسين عمل فنّي من مقتنياتي. رجعت إلى إسبانيا وصرت غريبا عن الوطن مرّة أخرى.

مهما تحدّثت عن هاتين السّنتين في العزلة وتحت الضّرب يبقى قليل. أنئي بي عن ذكر أنواع المشقّات وكلّ ما عانيت من عذاب وضرب وقصف وخوف.. الأمر مريع وفظيع ومؤلم جدّا.

متسائلة:

-لكن كيف كنتم تتدبّرون أمر المعيشة؟.

كانت أجابته سريعة:

-كان لنا في المزرعة كلب أمين ومدجنة مليئة بالدّجاج كنا نفلحها وكان بها الكثير من الأشجار المثمرة كنا نأكل من خيراتها و عرق جبيننا. المزرعة يا صديقتي... سمحت لنا أن نعيش خلال الزّمن الطّويل الذي لم نخرج من البيت زمن المحاصرة . لأنّنا كنّا بين

نارين، جيش النّظام، وجيش داعش. خرجنا من البيت الذي تركناه ولم نحمل شيئا سوى الألبسة. أعود لذكرى وفاء الكلب الأنيس الذي لم يخرج قطّ من المزرعة حتّى ولو تركنا بابها مفتوحا. المزرعة الكبيرة يحيط بها جدران شاهقة الارتفاع. أغلقنا الباب وأخذونا في منتصف اللّيل ولم يسمحوا أن نشعل أضواء السيّارة.

الإرهابيون بسيارتهم وأنا بسيارتي دون أيّ إضاءة. أبعدوني عن منزلي نحو أربعة أو خمسة كيلومترات وتركوني. الذي فوجئت به أنّه حين نزلت من السيّارة كان كلبي إلى جانبي خلف السيّارة. أي أنّه قفز من على الجدار وسار مع السيّارة.

بإعجاب قالت سولافة:

-يا له من كلب.

شاطرها الرأي:

-نعم تذكّرت عنوان كتاب أبي بكر بن الرزبان الشهير « فضل الكلاب على من لبس الثّياب» الكلب لم ينس المعروف. طلبت منه أن يعود إلى المزرعة لأنّني لا أستطيع أن آخذه معي. كان يبكي لأنّه كان يعرف أنّني لن أعود. لمّا يئس من أخذه معي أخذ طريقه إلى

المزرعة. أخبرني فيما بعد أحد الأفراد الذين أرادوا الدّخول إلى المزرعة قائلا:

– لقد أخذت له العشاء وأطعمت الحيوانات. كان الكلب جائعا وفرحا بالطّعام. لكن حين أردت الدّخول إلى المنزل عضّني ولم يسمح لي.

هذا آخر خبر عنه. كلب وفيّ. كان يعيش مع القطط دون أن يغدر بهم لأنّهم من أهل المنزل. تركناهم جميعا. ومضت ثمانية أعوام على خروجنا. حتّى الآن في كلّ وجبة عشاء نذكره هو وبقية الحيوانات الأخرى، حيث كنّا نستمتع بصحبتهم وبإعطائهم الطّعام صباحا مساء.

كلّما سمعت صوت ديك تهطل الدّموع من عيني لأنّهم كانوا لنا من المنبّهين والمنذّرين في اللّيالي التي كنّا محاصرين. حين نسمع صوت الدّيوك نعرف أن هناك العصابات تمرّ للسّرقات وتمرّ لإجبارنا على الخروج. بيمنا لا نستطيع أن نشعل عود كبريت واحد، لأنّنا كنّا تحت القصف متى شاهدوا شيئا يتحرّك.

مستنكرة متّهمة صديقها بعدم الوفاء للكلب الذي استمات في وفائه:

-لماذا تركته... أقصد الكلب؟. جازفت بحياته وهو الذي جازف بها من أجلكم... كنت تستطيع أن تأخذه معكم.

-كان لابدّ له من وثائق ليصعد الطّائرة والأفضل أن أتركه بالمزرعة من أن أتركه بمكان مجهول عنه.

متأسّفة غمغمت:

-كم عانيت يا صديقي وما كنّا نعرفه أنا وياسر عنك قليلا.

أجابها مع تنهيدة:

-مع كلّ هذا الجفاء وهذا العدوان لا أتمنّى هذا العذاب لأحد. بل أطلب من الله أن يعيد السّلام لبلدي ولكلّ العالم. في كلّ لوحة من منجزاتي لم يختف الألم. ألم البعد عن الوطن، ألم الإشارة إلى الأمراض التي أرغب أن تزو، ألم العجائز. ألم الفقراء. ألم العنف الذي فتك بالبعض. ألم النّساء اللّاتي لم تعتني بهنّ المجتمعات، ألم الأطفال. آلام نفسية جراء مكروهات العالم. أكبر المكروهات لي عدم استقرار السّلامْ وعدم الاحترام. السّلام والحبّ بين الإنسان وأخيه الإنسان هو شغفي الطّويل، ولست أنا أكثر من غيري محبّة للسّلام... أغلب من يعيش على هذا الكوكب يتمنىّ أن يعيش بسلام. الحياة

بـلا سـلام عندمـا يعـاش. السّـلام ليـس هـو نـوع مـن الأحـلام، بـل هـو الـذي نصنعـه بعملنـا.

أعتقـد بـأنّ كلّ البـشر مدعـوون للسّـعي إلى السّـلام وأن تسـعى لـه الـدّول. في العـدل والمسـاواة وفي التّعليـم المـدرسي والإعـلام والمجتمـع المـدني يكمـن السّـلام. في التّسـامح يكمـن السّـلام. في نبـذ العنصريـة والتّعايـش السّـلمي بـين الشّـعوب. مـا أجمـل الكـون بـلا كراهيـة ولا تباغـض ولا حـروب. علينـا محـو كلمتـي (عـدواً وأعـداء). عـدوّ الإنسـان هـو الإنسـان وتصرّفـه الخـاصّ. نصنـع كلمـة العـداوة كـي نتظاهـر أمـام أمثالنـا. فقـط هنـاك اختـلاف الآراء. اختـلاف المصالـح. فقـط هنـاك نـوع مـن الإهمـال. هنـاك نـوع مـن الطّمـع. نحـن بحاجـة إلى التّواضـع. عندمـا أعـترف بنفـسي أنّنـي لسـت أفضـل من غـيري إلاّ مـا يقـول عنّـي الآخرون. أكـون قـد لغيـت كثـيرا مـن أسـباب الكراهيـة نحـوي. عندمـا أقـول أنـا لسـت أقـوى ولا أفضـلُ ولا أملـك الحـقّ كامـلا عندئـذ مـن يعادينـي ؟. لكـن حـين أسـتخدم العنـف كـي يُقـال عنّـي ذكيّـا ويُقـال عـن قُـوّتي هـي الكـبرى. وأنـا أغنـى النّـاس وأنّ دينـي وعقيـدتي أفضـل وأصـحّ هنـا تجاوز كلّي للإنسـانية. عندمـا أسـتخدم القـوّة بـلا مـبرّر أكـون قـد خلقـت أمامـي الكثـير ممّـن يكرهـوني. لهـذا أدعـو إلى السّـلام. أبـدأ بنفـسي ثـمّ أدعـو الجميـع. لا أقـول إنّـه الوسـيلة الوحيـدة كـي يعيـش المسـتضعفون بسـلام

وكلّ العالم بسلام. لكن أعتقد آن لكل ّإنسان أن تكون له وسيلته الخاصّة لصنع وبثّ السّلام. فإن وضعنا الحبّ نكون حذفنا الإكراه. وإن وضعنا التّسامح والتواضع نكون وصلنا إلى الحل السليم.

سلافة وهي تلهو بخصلة من شعرها وعيناها لا تفارقان الحوار مع جليسها وحبيبها ياسر سالت محدثها في الهاتف:

-أريد أن أقول قبل أن تقفل الخطّ. سأحضر أنا وياسر معرضك الأخير بإذن الله... لي توق للقاء زوجتك الرّائعة والتّعرف إلى إسبانيا مرتع الأجداد.

ردّ على الفور:

-هذا ما هاتفتك من أجله، فحملتني على حين غرّة إلى أشجاني وحياتي وسورية التي فارقت. إذا أقول أقوم هذه الأيّام بتنسيق معرضي الدّولي العاشر في إسبانيا. أي إنّني أنجزت كثيرا من المعارض الفردية في إسبانيا وفي سورية. كما أقوم بتنسيق معارض دوّلية، تجمع بين الفنّانين العالميين وتعطهم فرص التّعارف وتسمح بتبادل الثقافة الفكرية. خاصّة بسهولة الصّلة الإلكترونية المعرض سيكون بإذن الله في متحف مدينا دوبومار حيث منحني المتحف جميع صالاته والتي تزيد مساحتها على ثلاثمائة متر مربع. يشارك بالمعرض فنانون من

الغـرب والـشّرق، ومـن الجنـوب والشّـمال، عـادة أقـوم بهـذه المعـارض بجهـودي الخاصّـة دون تكليـف الفنّانـين بـشيء. ليـس سـهلا العـرض في أوربّـا. لكـن الخـبرة الطّويلـة هنـا. الثّقـة التـي نلتهـا خـلال السّـنين هـي التـي سـمحت بعـد انتهـاء العـرض في المتحـف أن تنتقـل المنجـزات إلى أكـبر صـالات العـرض قـي بلبـاو. لا أحـد يـزور المنـازل لـيرى منجـزات الفنّانـين. لهـذا أقـوم بتنسـيق هـذه المعـارض لخدمـة الفـنّ وخدمـة الزّمـلاء مـن أنحـاء العـالم.

في ختـام المكالمـة بينهـا وبـين عبـد القـادر الخليـل أكّـدت إمكانيـة حضورهمـا متمنيّـة لـه التوفيـق:

-صديقـي الطّيـب الرّائـع... تعلّمـت منـك الكثـير هـذا المسـاء. يالـك مـن مسـالم محـبّ للسّـلام. ليـت السّـلام يعـمّ الكـرة الأرضيـة التـي أتمنّاهـا وردة عملاقـة بحجمهـا يستنشـق عبـير عطرهـا الجميـع... ليـت الإنسـان يكـفّ عـن أن يكـون عـدوّ أخيـه الإنسـان... آه... لـن أطيـل عليـك فاتـورة الهاتـف تكـبر. انتظرنـا في إسـبانيا... هنـاك سـأكتب وياسر قصّـة ولادة وبـن زيـدون لكـن دون فـراق... ربّـما تكـون روايـة رائعـة هههههـه... إلى اللّقـاء.

أبقاها بخير:

-شكرا لسماحة طبعك واستماعك لي... شكرا على وقتك صديقتي بلّغي سلامي الحارّ لياسر... إلى اللّقاء.

وهي تهمّ بوضع السماعة:

-إلى اللّقاء... مع السّلامة.

الفصل الرّابع

يوم حافل ينتهي بحلم مزعج

كان مساء أحد... لا دوام بالعيادة ولا دروس في الكلية... إنّه يوم حبّ وعشق وهيام... يوم من التقويم الزّمني لهما فحسب... لهما فقط... بعد أيام سيتزوجان وسينسيان كلّ عذابات الماضي.

يا له من أحد... يوم لسولافة وياسر فقط... يا لا الرّوعة والجمال والرومانسية.

بعد أن حصدا من ثمار الحبّ جنيا وفيرا ومع بداية رحيل المساء عانقها بحنوّ، قبّلها بشغف وسحب نفسه ببطء. ثمّ تناول هاتفه من فوق المنضدة على يسار الكنبة مودّعا إيّاها. على أمل اللّقاء في الغد صباحا. تاركا رائحة عطره الخلّابة تملأ المكان. رائحته التي تنعش روحها وتردّها إليها.

كان اللّيل قد عانق المدينة لمّا أدار محرّك السيّارة الرّابضة في الحديقة

الصّغيرة أسفل البناية الشّاهقة التي تسكنها سولافة.

خيّم الصّمت مجدّدا بشقّة سولافة. كلّ شيء صامت من حولها حتّى التّلفاز أطفأته حالما خرج ياسر. لا تعرف لم شريط الذّكريات يتداعى أمامها من جديد.

تلك اللّيلة كانت ثقيلة على روحها. جافاها النّوم. لم يغمض لها جفن وهي تفكّر في شريط حياتها بأشياء كثيرة. بياسر والعراق والحرب الأهلية التي تهدّد لبنان من جديد. بالتّهجير الفلسطيني. بالرّبيع الذي رجع بالوبال على تونس وليبيا وسوريا والسودان واليمن. بمصر ومحاولات تجفيف النّيل. وبتوحّش إعصار شاهين.

مع انبلاج الفجر. أخذت جرعة ماء باردة من المطبخ. ثمّ رجعت إلى فراشها. تكوّمت ككثيب رمل منفلت من عاصفة هوجاء. أخيرا غطّت في نوم عميق. لكن الأشياء السيّئة تنام بالأعماق ولا تموت. ساكنة كلّ الجوارح. تقلّ المضاجع وتشتّت الأذهان وتظهر في كوابيس. أشبه بورطة لا يمكن اجتنابها. تشنّجت أنفاسها وتسارعت حتّى أحسّت بالاختناق. تصاعد أنينها المتقطّع ثم شيئا فشيئا استرسل وصار صراخا صامتا، ختمته بصرخة مدوّية في أرجاء الشّقة. سمعها أغلب سكّان العمارة. انتفضت واقفة مفزوعة من فراشها. جلست

عـلى طـرف سريرهـا تبسـمل وتسـتجمع أنفاسـها.

طـرق خفيـف عـلى البـاب. نهضـت بتثاقـل ومشـاعر الفـزع تزيـغ نظرهـا وتغـرورق عينيهـا. كانـت جارتهـا الإيطاليـة إلينـا الطيّبـة التـي تسـكن في الشـقّة المقابلـة لشـقّتها. سـمعت صرختهـا المدوّيـة وجـاءت لتطمئـنّ عليهـا. ليسـت المـرّة الأولى التـي تدخـل فيهـا إلينـا شـقّة سـولافة لنفـس السّـبب. صراخ سـولافة إثـر كابـوس يتكـرر في نومهـا. سـألتها إلينـا:

-هل هو نفس الحلم؟.

ردّت بصوت متهدّج:

-حلـم لا هـو بالمزعـج المخيـف ولا هـو بالمفـرح المبـشّر... حلـم مزعـج ومشـاكس حـدّ إثـارة الغضـب وتذكيـة جمـر الثّـورة.

سألتها مستفسرة:

-أيّ حلـم هـذا الـذي يسـلب منـك راحتـك هكـذا؟. قصّيـه عـلي ربّـما أفـكّ شـفرته قليـلا؟. أزعـم أنّ لي بعـض المعرفـة بتفسـير الأحـلام... قـد تتخلّصـين منـه عندمـا تقصّيـه عـلي... تكلّمـي عزيـزتي كلّي أذان صاغيـة لك . .

وهي تضغط براحة يدها اليمنى على صدرها ونظرها شاخصا في وجه إلينا المستفسرة:

-حالما أضع رأسي على وسادتي وأذهب في نوم عميق لا أهنأ به كثيرا، أسمع جلبة وضوضاء بالشقّة ثم تتحوّل تلك الجلبة إلى قهقهات ناعمة... سبحان الله وكأنّها لحوريات من الجنّة. ثم أشاهد مجموعة من الصّبايا العربيّات الجميلات جدّا. يشرن لي بأياديهن يقهقهن ويتراجعن في خطوات إلى الخلف ويولين لي ظهورهن وأنا أتبعهن إلى أن يدخلن شقّة جارنا جون.

سألتها إلينا:

-هل الحلم نفسه بحذافيره؟.

همهمت:

-نعم شريط مصوّر يعاد كلّما وضعت رأسي على الوسادة وذهبت في النّوم وكلّ ليلة منذ دخلت شقّته ذلك اليوم لأسعفه عندما أصيب بالكورونا.

بقرف قالت إلينا:

-اللّعنة... ذلك الكريه... كم أمقته... في حياته سرّ لست

أفهمـه.

سولافة بوهن:

-وأنا أقول هذا أيضا.

استدركت إلينا:

-أتـركك الآن لترتاحـي قليـلا... حـاولي أن تفرغـي رأسـك ممّـا يزعجـك لتكمـلي نومـك... مـع السّـلامة.

سولافة من جديد لكن بامتنان هذه المرّة:

-شـكرا لـك مـن كلّ قلبـي إلينـا. أنـت حقّـا جـارة وصديقـة طيّبـة حمـاك الله.

بعـد بضعـة أسـابيع مـن الحـيرة ومـن القلـق الدّائمـين وفي ليلـة أحـد مـن لياليهـا الكئيبـة التـي تمـرّ ببـطء. كانـت عـلى موعـد مـع حلمهـا المزعـج الـذي أقـلّ مضجعهـا ككلّ ليلـة. حاولـت الانفـلات مـن قلقهـا. جلسـت عـلى طـرف السّريـر. مـرّرت يدهـا اليمنـى عـلى فـروة رأسـها. ثـمّ عـلى وجههـا. شـدّت فكّيهـا بقسـوة لتزيحهـا مـن جديـد وتسـحب نفسـا عميقـا خيّـل إليهـا أنّهـا سـحبت معـه رئتيهـا. أكملـت سـويعات الفجـر منشـغلة بترتيـب دولاب ملابسـها. حيـث حاولـت القـراءة فلـم

تستطع. فتحت النّت فلم تركّز على شيء. قلقها ناجم عن عدم فكّ شفرة حلمها الغامض. شيء واحد يشغلها ويسيطر على عقلها وكلّ حواسها. علاقة حلمها بجارها الكريه وبسرّ عرائسه التي يخفيها في شقّته. كانت متيقّنة من وجود لغز في الأمر ورابط بين عرائس جارها وأحلامها. كانت بحاجة إلى الاختلاء بنفسها والتّفكير فيما يمكنها فعله.

مرّ الصّباح كئيبا ملبّدا بالغيوم. علامات الاضطراب بادية على وجه سولافة. قلبها الوجيف يهندس ملامح وجهها. انزوت في ركن صغير تفكّر في ما مضى وفي ما هو آت. منشغلة بخطّة تخلّصها من كوابيسها وأفكارها المزعجة. كيف تدخل شقّة جارها من جديد؟. بالتّحديد غرفة عرائسه التي يخفيها عن الأنظار؟.

الطّقس بارد وضبابيّ، السّماء تلّفها الغيوم، الرّيح تسعل بشدّة عندما عزمت على تنفيذ خطّة. أن تتحرّى بوسائلها الخاصّة. ممسكة بشتات روحها جالت بعينيها الواسعتين الجميلتين في كلّ أرجاء الغرفة ثمّ وبصوت مسموع:

-سأدخل بيته اليوم. هو حقير ووضيع بلا ريب. قد تصدر منه سلوكيّات وتصرّفات غير متوقّعة. لكن كلّ ما حدث ويحدث وما

سيحدث لن يثنيني عن عزمي. لن يكون أشدّ وطأ ممّا مررت به من أزمات وشدائد ومحن. كان فقداني لعائلتي أمر سيئ للغاية لا يعادله أيّ ألم وأيّ ظلم وجور سأعرف. الجميل أنّني لا أزال صامدة. إنّها إشارة بأنّ الله معي من كان سيد الأنام معه لا خوف عليه.

تظاهرت بالقوّة والضّعف يشبك ضلوعها. استحمّت وتبرّجت وتعطّرت بشيء من الإغراء المصطنع. كانت بشرتها الحليبية فاتنة، جذابة، مثيرة. بعد نصف ساعة كانت واقفة أمام باب شقّته وبين يديها صينية عليها فنجاني قهوة شرقية منكّهة. تسمّرت أمام الباب في تردّد. رفعت رأسها في توجّس. شدّت قوامها الرّشيق في ثقة إلى الأعلى. حدّقت إلى الباب بنظرات حذرة، متحفزة. حاسّتها السّادسة تعمل بنشاط. عضّت على شفتيها في ألم، ثمّة شيء فظيع قادم ببطء. حسمت أمرها، لم يعد هناك مجال للتّراجع. تريّثت قليلا. أخذت نفسا عميقا قبل أن تطرق الباب بخفّة وهدوء.

مرّت بضع ثوان قبل أن تسمع صرير الباب وهو يفتح. حسبتها سولافة ساعات. حدجها وصينيتها بنظرة منزعجة. نظراته لا تطمئن أبدا. حملق فيها باندهاش لمدّة طويلة، كانت نظرته استفهامية. انحبست أنفاسها وهي تتفرّس ملامح الشّخص ذي التّقاطيع الصّارمة

الماثل أمامها والذي لن تبدّل رأيها به أبدا. نظرة الاحتقار تملأ عينيها الواسعتين. قد يبدو رأيا متحيّزا وعنصريّا. لكن باعتبارها يبقى الكركدن، التّافه والدّميم، ولا قيمة له. بدت الصّدمة على وجهه المحمرّ من شدّة الخنق. أسنانه تكزّ وتصطكّ على بعضها من فرط الغيظ. أوداجه منتفخة كوجنتي عازف النّاي في حفلات شمال أفريقيا الفلكلورية. خيط من الدّخان يتصاعد من بين شفتيه. يعتمر قبّعته الحمراء الرثّة فوق شعره الطّويل الأشعث، الكث. لحيته لم تحلق منذ زمن. على زاويتي شاربيه بقايا طعام. تصفّح وجوهها بتمعّن شديد، كأنّه وحش يترقّب فريسته. للحظة كانت ستستدير إلى الوراء وتقفل راجعة إلى شقّتها قائلة بصوت لا يكاد يسمع وبلهجة عراقية محلّية:

-أجازف كثيرا كيف أدخل شقّة هذا الرّجل الغريب الأطوار والطّباع. سوف أموت بطريقة مفزعة لا يعرفها أحد.

يقول المثل الفارسيّ شجاعة بلا حذر حصان أعمى والمثل الإنجليزي يقول إذا نام الحزن فلا توقظه. أمّا الألمانيّ فيقول الاستعجال والنّدم إخوان شقيقانا وهو شاخص فيها.

ما إن لاحظت ذلك حتّى انقبض صدرها. جحوظ عينيه يلفّها بأشواك تنغرز بروحها وجسدها. وساوس كثيرة كانت تتزاحم في

رأسها. نبرة الضّيق في َصوته لم تخفّ. جمعت شتات ما تبقّى منها. كلّفها ذلك جهدا كبيرا عبئه أثقل من الجبال الرّواسي. بعد برهة أفاقت من تيّار وساوسها الذي جرفها. بذلت جهدا كبيرا للحفاظ على توازنها الخارجيّ. حاولت التشبّث بكبريائها قائلة بوجه غمرته بابتسامة مصطنعة:

-أعتذر على اقتحام خصوصيتك. ألا ترى الطّقس غائم وكئيب؟. قلت نشرب معا فنجاني قهوة ونتعرّف على بعض أكثر. نعقد صفقة صلح ونؤسّس كجارين وحيدين لعلاقة أكثر ودّا. تجاذب أطراف الحديث يذهب الملل والشّعور العميق بالوحدة. ما رأيك أنت؟.

ألقى عليها نظرة فاحصة غير ممتنّة، يتأمّل الفنجانين المذهّبين والنّقوش الصّينية الفضّية الجميلة وقد ذهبت رائحة القهوة بعقله المشوّش أصلا:

-نعم لم لا. فرصة جيّدة.

بابتسامة ذئبية:

-صحبة فتاة جميلة مثلك تغريني. لا شيء يعادل سحر العربيّات .

واللّعاب يسيل من زاوية فمه:

-لا شيء .

في قرارة نفسها لم تكن تستهين بالأمر إلى تلك الدّرجة. حيث لم تستطع أن تنفي خوفها الشّديد من ذهابها وحدها. هذا الكائن، تصرّفاته صادمة. يقول ويفعل أشياء غير متوقّعة بالمرّة. أحسّت للحظة أنّها تتصرّف بحماقة. سيماته الحادّة تخيفها. ثمّة أمر فظيع قادم ببطء. خدّاه يرفّان بعصبيّة. أخرج منديلا ورقيا. مسح حبيبات العرق المتفصّدة من جبينه. تنحّى جانبا ليفسح لها طريق الدّخول. دفعت دفّة الباب الخشبيّ بهدوء. خطت في ارتباك إلى داخل الغرفة، وهي تجيل نظرها في المكان. كان المنزل غارقا في الظّلام والوحشة. حالة فوضى في كلّ مكان عارمة. بدت بعض زواياه غير مريحة. رائحة تفسّخ الزّبالة لا يحتمل. كانت الرّائحة الكريهة تلفّ المكان. الجوّ ثقيل بالرّوائح الخانقة. مدّ يده إلى مفتاح كهربائيّ في البهو ليضيء المكان، وهو يشير إليها بالجلوس إلى جانب المدفأة على كرسي خشبي كبير

وقديم. نظراته المتفحصّة لا تطمئن أبدا. انحبست أنفاسها وهي تتفرّس ملامح الشّخص الماثل أمامها. توقّف برهة صغيرة ليلتقط أنفاسه. رمى عقب سيجارته على القاعة المتّسخة. داسه بعنف تحت

نعـال حذائـه العسـكريّ القديـم.

سمعت صوته المشحون قلقا يخاطبها:

-ماذا تشربين؟.

دون تردّد ولغاية في نفس يعقوب:

-ماء... لا بأس بكأس ماء.

ضحـك وهـو يتنـاول فنجانـه مـن يدهـا بعـد أن ناولهـا فنجانهـا ووضـع الصّينيـة عـلى المنضـدة المقابلـة قائـلا في سـماجة:

- نسيت أنّك أتيت بالقهوة.

تابع بارتياب:

-هذا الجمال الفتّان يخفي الكثير من الأسرار.

معدّلة في جلستها وقلبها يخفق وجلا ورهبة:

-كيف... ؟. كيف... ؟. ما عندي أيّة أسرار.

متصنّعا اللّطف والوداعة:

-هاتان العينان تقولان الكثير.

بـدلال زائـف ومتصنّـع أيضـا بعـد أن شربـت عـدّة رشـفات مـن كأس المـاء:

-أرى أشياء تجمعنا أليس من الضروري تنميتها.

وقـف مـن مكانـه ومشـى جيئـة وذهابـا أمامهـا. ثـمّ فاجأهـا مـن خلف كتفهـا وهمـس في أذنهـا اليمنى:

-توّاق لتجربة ليست كأيّ تجربة.

برعب ولكن بحنكة:

-أنا أحبّ الرّسم ولكن أجهل أبجدياته.

كعصفور ينتفض:

-مـا شـأني أنـا بالرّسـم هـل؟. قالـوا لـك أنّنـي رسّـام أنـا رجـل حـرب. لا علاقـة لي بعـالم الرومانسـية والفنّانـين التّافـه.

وقد علمت أنّها أصابت منه مقتلا فأجهزت عليه:

-عرائسك تلك ماذا تسميها ؟. أليست قمّة الرومانسية؟.

ذهـل وصعـق. لم تكـن عنـده إجابـة جاهـزة. عينـاه إلتمعتـا مـن الغضـب وقدحتـا شررا. تـرك دعامـة كرسـيّها الخلفيّـة. بسرعـة كان

أمامهـا. أمسـك بكتفيهـا، مطيـل النّظـر إليهـا وهـو يحـدّق إلى عينيهـا. ماسـحا أنفـه بطـرف كمّـه:

-هـل تجـرّأت وتجوّلـت في بيتـي ونبشـت في أغـراضي وأنـا مريـض ذلـك اليـوم؟.

صعقهـا تصرّفـه ذاك. لكـن لم تشـأ أن تواجـه شرر عينيـه النّاريتـين. هربـت بنظرهـا إلى أسـفل طـرف تنورتهـا وراحـت تتحسّـس خُـرم الدّانتيـل. بـدت كسـيرة القلـب وقـد لاحـظ انهيارهـا. عـاد ورجّهـا بقـوّة:

-قلت من سمح لك بذلك؟.

بصوت خفيض، ضعيف وكأنّها محمولة بين مخالب نسر:

-لم أفتّـش في أغراضـك ولم أتجـوّل عنـوة في غـرف المنـزل. حتّـى أنّنـي لم ألمس تلـك العرائـس. كنـت مريضـا، وقـد تعبـت في السّـهر إلى جانبـك والعنايـة بـك. أحسسـت آنـذاك أنّ رجـلي قـد أصابهـا الخـدر مـن كثـرة الجلـوس. فقمـت أسرّحهـا في الممـرّ ولمحـت تلـك العرائـس مصفّفـة في تلـك الغرفـة(مشـيرة إلى بـاب قبالتهـا) .

تجعّـدت ملامحـه كوحـش متأهّـب للانقضـاض. صـار يهتـزّ وينتفـضّ وكأنّ أحدهـم يقـرع عظامـه:

-هل دخلت تلك الغرفة؟.

نافية في جزع، هزّت رأسها في استنكار والكظريتان بأسرع نشاطهما:

-لا لا... لم أدخلها.

كانت بشرتها شاحبة. تسارعت نبضات قلبها على نحو خارج عن السّيطرة. أحسّت به ينقبض. ازدردت ريقها بصعوبة. شعرت بألم في حنجرتها. تصوّرت المصير الذي قد تؤول إليه. عضّت على شفتيها ذعرا. حدّقت إلى كأس الماء بين يديها. أطبقت أناملها عليها حتّى كاد ينفجر زجاجها. صارت مثل التّمثال. في الخارج قطرات المطر فوق إطار النّافذة تعزف نوتة قلقة، عجلى، مضطربة. داخل كهوف الخوف الملتصقة بجدار القلب عثرت على نتوء صخريّ. تشبّثت به. أملها الوحيد للنّجاة. استعملت خبرتها. فقد مكّنتها الحياة بحلوها ومرّها من اكتسبت معرفة دقيقة بالنّاس. حاولت لملمة ذهنها

والتّفكير بعقل هادئ. أغمضت عينيها وتنّفست ببطء . فتحتها مجدّدا. نظرت في قلق نحو الباب الخشبيّ الكبير. ثم إلى الممرّ الأفعاوي. استعملت دهاء الأنثى وسلاحها الأضعف الأقوى. دلالها وغنجها. إنّها مضطرّة وليس لأنّها تريد. راقبته وهو يسحب نفثة طويلة من سيجارة أشعلها توّا، ممتقع اللّون مرتعدا. ثمّة ذبابة تحوم

حـول وجهـه. همسـت كقطّـة مراوغـة:

-مـا الـذي يمكـن أن أفعلـه في بيتـك؟. ومـا الـذي أتـى بي ذلـك اليـوم وأنـت مريـض وأعتنـي بـك؟. أليـس أمـرا آخـر؟. فكّـر مليـا. امـرأة ليسـت لـك بهـا معرفـة جيّـدة أو قـل لهـا معـك ذكـرى سيّئة. أنـت الـذي تهجّمـت عليهـا في بيتهـا طالبـا الـشرّ. رغـم ذلـك تعتنـي بـك في مرضـك بالكوفيـد. يـا أخـي بعـض الأمّهـات تركـن أبناءهـن الذيـن أنجبنهـن لمصيرهـم في الكوفيـد خوفـا مـن العـدوى. مـع ذلـك أنـا جارتـك التـي أذيتهـا، لم تـتركك لمصـيرك مـع الكوفيـد وأنـت الوحيـد في هـذه الشـقّة الغريبـة.

وهو يهرش جلد صدره الأيمن من فوق قميصه:

-في الحقيقـة لا أعـرف دخيلتـك. رأيـت في حضـورك لغـزا. مـرّت بذهنـي الخواطـر كلّهـا. لكـن قلـت الأخـلاق العربيّـة فرضـت عليهـا واجبهـا.

تساءل وهو يطقطق أصابعه كأنّه غير مصدق:

- هذه الحال لابد أن يكون ثمّة شيء جدّي.

كان المطـر قـد توقّـف. مـن خلـف زجـاج النّافـذة الشّـمس بـدأت

ترسل حرارتها. أخذ الدّفء يزحف إلى أطرافها التي تجمّدت من التوتّر أكثر من البرد. حصل ما كان في الحسبان. الرّجل يشكّ في أمرها. صارت وضعيتها صعبة ومهمتها أصعب. وضعت كأسها على المنضدة إلى يسارها. استندت إلى دعامة الكرسيّ خلفها مريحة ظهرها. ضمّت يديها الواحدة فوق الأخرى إلى صدرها مخفية راحتيها تحت إبطيها. همست في دهاء وغنج أكثر:

-ربّما لا توجد صلة بيننا غير ما هو إنسانيّ... لكن... ل... كن... لكن أنا...

في قلّة صبر ككلب هرم:

-لكن أنت ماذا؟.

حطّت حمامة مرتبكة على الشّبكة الحديدية التي تحمي الشبّاك، و سلافة تراقبها وصلتها رائحة كريهة منبعثة من أنفاسه. رغم الكمامة القماشية التي تسدّ أنفاسها وتغطّي أنفها وفمها. نظرت إلى أوداجه وإلى أجفانه المتكيّسة. أجفلت روحها منه أكثر من ذي قبل. الرّجل الكركدن كما تسمّيه قبالتها وهي في بيته. ستمثّل عليه دور العاشقة الولهانة لتصل إلى هدفها. غرضها الوحيد الحصول على واحدة من عرائسه التي ينحتها من العظام ويخفيها. همست ببيت لعلي ابن

الجهـم:

-ولـولا الهـوى مـا ذلّ في الأرض عاشـق ولكـن عزيـز العاشـقين ذليـل

انبسـطت أسـاريره وبـدت عليـه ملامـح السّـعادة. أدركـت سـولافة ذلـك فأجهـزت عليـه بـما حـبّر الحـلاج وهـي تعلـم أنّـه يفهـم اللّغـة العربيّـة أكثـر مـن العـرب أنفسـهم. دون أن تـترك لـه مجـالا ليلتقـط أنفاسـه ويسـتوعب برويّـة مـا يجـري:

«مازجت روحك روحي

في دنوّ وبعادي

فأنا أنت كما أنّك

إنّي ومرادي..»

وهـي تسـوّي شـعرها ومـن هيئتهـا هبّـت في رشـاقة واقفـة. عارضـة قوامهـا الفاتـن لمزيـد تهييـج غرائـزه والتحكّـم بغـرف قيـادة عقلـه. سـلاحها ذكاؤهـا وجمالهـا. اسـتعملتهما لأنّهـا كانـت مدركـة لهـذه الحقيقـة .

غمـرت اللّهفـة والشّـوق ملامحـه. تسـارعت دقّـات قلبـه في إثـارة. كسـا وجهـه العـرق. سـقط فريسـة الفضـول والشّـغف معـا. نظـر إليهـا

نظـرات سـاهمة. ركـن كلّ عجرفتـه. كلّ شروره جانبـا. صـار الحمـل الوديـع المهـذّب العاشـق الولهـان فجـأة. همـس والكلـمات مرتبكـة عـلى لسـانه:

أتحبّينني حقـا؟. لا أصـدق هـذا ؟. أنـا سـعيد جـدا. قلبـي يرقـص. إنّـه يقيـم حفـلا بهيجـا بـين أضلعـي.

لم تسـتطع تخليـص نفسـها مـن الوسـاوس ومـع ذلـك إجابتـه في رومانسـية مصطنعـة بنـبرة أكثـر رقّـة:

ن... نـع... نعـم. صـدق أو لا تصـدّق. وأنـت مـاذا تفعـل؟. بـماذا تجازينـي؟. تلقـي اتهاماتـك جزافـا؟. مـا غـرضي بغرفتـك تلـك ؟.

أو بتلك العرائس التي تخفيها؟.

تعمّـدت التلفّـظ بالكلمـة الأخـيرة ونطقتهـا بطريقـة مميّـزة عـن بقيّـة كلـمات جملتهـا.

طالعهـا بنظـرات ملؤهـا الشّـغف والرّغبـة المحمومـة. حـاول أن يبتسـم بصفـاء. تقـدّم منهـا حتّـى كاد يلتصـق بهـا. كاد يغمـى عليهـا جزعـا ونفورا مـن رائحتـه الكريهـة. أخـذ راحتيهـا بـين راحتيـه المتخشّـبتين كجلد تمسـاح أو سـلحفاة هرمـة. جذبهـا بلطـف فوقفـت وهـو يمسـك بيديهـا سـحبها إلى

الممرّ ثمّ إلى غرفة سرّه الكبير. إلى غرفة عرائسه.

وقفا أمام خزانة كبيرة بلا أبواب. أمامها طاولة من النّحاس عليها. آلة خياطة سانجار، وبكرات خيط. كانت العرائس في كلّ مكان. بيضاء تميل إلى لون الجبن المحلّى بصفرة. تلبس فساتين من أقمشة ملوّنة وزاهية. وعلى الأرض نشارة عظام وخرق بقايا أقمشة من تلك التي فصّل وخاط منها الفساتين الصّغيرة.

هال سولافة ما رأت. خافت وارتعبت. هي الآن شبه أكيدة أنّ الدّمى من عظام بشريّة. خيّل إليها أنّها ستقبر في الغرفة وتصير مجموعة عرائس ونشارة عظام. حزنت لتلك العظام التي كان أصحابها مفعمين بالحبّ والحياة. ولم يدر بخلد أحد منهم أنّهم سيصيرون دمى بشريّة في غرفة نحّات تعيس، نجس بنيويورك. أحسّت برغبة في صفعه وخمش وجهه. في قتله وتمزيق جسده. لكنّها لعنت الشّيطان. لن تبادل الشرّ بالشرّ، وتتبرّأ من إنسانيتها كهذا المفترس الحقير. لن تصير قاتلة وهي التي تقف ضدّ الظّلم ومتعلّقاته. استغفرت ربّها مخاطبة دخيلتها:

-غفرانك يا إلهي كيف يخطر لي مثل هذا؟. حقّا إنّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان كما قال هوبز.

لكن هو على العكس بدا وهو يقدّم إليها إحدى العرائس هدية سعيدا:

-خذيها لن تكون أغلى منك لدي. إنّها من عظام الفيّلة إلي صديق إفريقيّ يجلبها لي من هناك مقابل بعض الدّولارات.

مسح شاربيه وابتلع ريقه بصوت مسموع، مقزز. وهو يظنّ أنّ حيلته انطلت على سولافة. لأنّه يحسبها المتيّمة بحبّه. الشغوفة بجسده، الكريه، القذر. هالها تصرّفه لم تتوقّع أن يكون على ذلك القدر من الوقاحة. يتكلّم عن بقايا بشرية بلا خجل أو ندم. أو علامات على تأنيب الضّمير. كأنّه يتحدّث عن مادّة بلاستيكية صنعت منها عرائسه.

كانت الفرصة السّانحة أكبر لها من توقّعها. أجابته بابتسامة ظافرة:

-شك... شكرا... لك أنا حقّا لم أتوقّعك كريما ولا لطيفا إلى هذه الدّرجة.

بتلعثم ولعابه يسيل من زاوية فمه اليمنى:

-شكرا لك أنت... أيّتها العربيّة. دماؤك الحارّة هي التي أيقظت

فيّا وداعتي ولطفي وإنسانيتي..

رأت حركاته مقززة منفّرة غير لائقة. لم تظهر له نفورها. اجتهدت في إظهار عكس ما تضمر. سحبت يديها بدلال

ودون خشونة. ابتعدت عنه بضع خطوات فاسحة له مجال تأمّل تقاسيم وجهها وحركات جسدها النّحيف:

-لكن أرى أنّ كلّ مجموعة من العرائس تلبس لونا موحدا من الأقمشة ولها نفس الحرف الأول من الاسم.

وقد اتّسعت حدقتا عينيه وبان عليه الرّعب رغم اجتهاده في أن تكون إجابته طبيعية. طابعا ضحكة متكلّفة على شفتيه. حتّى لا يثير شكوكها وريبتها. بدا ودودا إلى أبعد الحدود:

-تريدين معرفة كلّ شيء دفعة واحدة أيتها الفضولية، الماكرة، الجميلة. اتركي هذا السرّ للأيّام القادمة .

وفي قرارة نفسه من المستحيل البوح بهذا السّر... فقط لينسيها سؤالها ريثما يتدبّر ايجابة مقنعة.

تحرّكت مبتعدة أكثر وكأنّها تقتنص فرص الاقتراب من الباب الخارجيّ لتركض هاربة من الجوّ الخانق وتتحرّر من أسر عيني هذا

النّسر الكاسر. هذا الكركدن الكريه القذر.

عبس في انزعاج، سألها. كأنّه قرأ ما يجول بخاطرها:

- أو ستخرجين؟.

تمقت ما يفعله غير أنّها لا تملك الجرأة لصدّه. حاجتها إلى الحقيقة تثنيها عن فعل ذلك. جاءت إجابتها ذريعة للتخلّص من محاصرته لها:

-نعم عندي محاضرة مهمّة جدّا في الكليّة الآن. بعدها سأتوجّه للمداومة في العمل وسأتغيّب أسبوعا عن المنزل. بعده نلتقي لنواصل الحديث.

فاغرا فاه:

- أسبوعا بكامله؟...

-نعم سأذهب إلى إسبانيا. ثمّة معرض في الفنون التّشكيلية لصديق لي من سوريا. سأكون هناك بعد غد رفقة أصدقاء لي.

فجأة سألها:

-ماذا تدرسين؟.

حاولت أن تكون طبيعية وتتصرّف بهدوء. لكنّها لا تستطيع، صمتت برهة قبل أن تجيبه:

-فنون تشكيلية... لذلك اهتممت بعرائسك الجميلة.

تخلّصت من حدّة عينيه كي لا يكتشف كذبتها وهي تجيل عينيها في بلاط القاعة القذر. لم ترغب في إخباره دراستها للطبّ وشغلها لدى طبيب شرعيّ. هي تعلم أنّه لو يكتشف ذلك لن تخرج من شقّته أبدا. سيكون مصيرها كمصير عرائسه.

نظر إليها في صمت والرّغبة المحمومة تعصف به... ثم قال بخبث:

-سأشعل الشّموع في غرفة نومي من الآن بانتظارك بعد أسبوع حبيبتي.

تقدّم منها. ضمّها إليه حتّى كادت تستفرغ على ثيابه من بطش رائحته النّتنة. حاول تقبيلها فتمنعت بغنج. نظر إليها وأطلق ضحكة مدوّية وقال:

-تمنّع العربيات وهن كما يقولون راغبات أليس كذلك. لا بأس هذه المرّة أعتقك. اذهبي أنت حرّة من عقال أحضاني إلى أن تعود

مـن إسـبانيا.

وهي تتنفّس الصّعداء تمتمت داخلها:

-تبا إنّه أوقح ممّا تصوّرت.

مـع القـرف الـذي تشـعر بـه حيالـه ابتسـمت ابتسـامتها تلـك. ابتسـامتها البـاردة الجامـدة . الخارجتـين مـن بـين شـفتي دميـة بلاسـتيكية لا روح ولا دمـاء فيهـا. أشـارت لـه بيدهـا اليمنـى مودّعـة. صفقـت البـاب وراءهـا كـي لا يتبعهـا. حمـدت الله عـلى النّجـاة أولا وعـلى الظّفـر بعـروس مـن عرائسـه وعـلى نصـف الـسرّ المتمثّـل في كـون العرائـس مصنوعـة مـن العظـام.

وكلّ مجموعـة عليهـا نفـس الفسـاتين الصّغـيرة مـن نفـس الأقمشـة ونفـس الألـوان. كـما أنّهـا تحمـل نفـس الحـرف الأوّل مـن أسـمائها. شـكّها في محلّـه. العظـام المنحوتـة ليسـت عظـام فيّلـة أو أيّ حيـوان آخـر. كلّ النّشـارة والبقايـا تـدلّ عـلى أنّهـا عظـام بشريّـة. لكـن سـتتأكد. قريبـا جـدّا سـتتأكّد. قريبـا جـدّا سـتفكّ شـفرة اللّغـز. سـتعرف الـسرّ.

لم يكـن اللّيـل قـد هبـط بعـد عندمـا أدارت سـولافة محـرّك سـيّارتها. بعدمـا اسـتحمّت وبدّلـت ثيابهـا وحملـت مجموعـة أخـرى مـع الدّميـة التـي

أهداهـا لهـا جارهـا الكركـدن في حقيبـة سـفر. غـادرت البيـت وكأنهّـا هاربـة منـه.

بعدمـا خرجـت السـيّارة مـن المـرآب ومـن حديقـة البنايـة الفارهـة لمحته مـن المـرآة الجانبيـة في مدخـل البنايـة يرمقهـا. تظاهـرت بعـدم الاكـتراث. محاولـة أن لا تبـدي اهتمامـا. ثبّتـت إبـرة الرّاديـو عـلى المحطّـة الإذاعيـة صـوت العـرب التـي يتابعهـا كلّ المغتربـون. سـمعت المذيـع وهـو يحيّـي مهندسـة الفضـاء التّونسـية في إشـارة إلى نهايـة الحـوار وينهـي حديثـه قبـل الفاصـل الغنائـي بقصيـدة للـوركا:

«خضراء، أحبّك خضراء

الرّيح خضراء، الغصون خضراء.

المركب في البحر

والجواد على الجبل على شرفتها تحلم

والظلّ على خصرها،

جسدا أخضر وشعرا أخضر

وعينين من فضّة باردة

أحبّك خضراء... «.

سكت المذيع. ردّدت وراءه وأنا أيضا أحبّك خضراء وأحبّ كلّ شبر من الأرض العطرة في وطننا العربيّ.

فجأة تكدّر خاطرها لّما تذكّرت خبر غرق مركب» حراقة» قبالة سواحل عاصمة الخلافة الفاطمية مدينة المهدية.

وموت أكثر من خمسة وعشرين شابّا. حرقتهم البطالة فسلّموا أنفسهم للمصير المجهول بين فكّي بحر شرس يربط البلاد بإيطاليا. بحر طحن الكثير من الأجساد الغضّة الحالمة. أطفأ الكثير من العيون الزّائغة. أسكت الكثير من الأرواح المرتعشة فرائصها هلعا وخوفا.

ما علمته صبحا مأساة جديدة تعصف بالخضراء. تونس بلد الكثير من أصدقائها وصديقاتها الذين عرفت الكثير منهم في بغداد والموصل. حيث كانوا بالعشرات يدرسون في العراق وعرفت البعض الآخر في بعض الدّول الغربية وفي أمريكا.

بعاصفة من الحزن أسكتت المذياع وهي تنعطف إلى شارع هوستن ستربت والممتدّ لأكثر من عشرين كلم. الشّاسع جدّا بحيث تسمح مساحة عرضه بمرور ستّ سيّارات معا. الواحدة إلى جنب الأخرى.

وبين الثلاثة الأولى والثلاثة الثانية مساحة كبيرة لممرّ المترجلين. ممّا سمح لسولافة بأن تستوعب ما حدث لها في يومها وما قد يحدث. في طريقها مرّت بالكثير من مراكز التسوّق والمحلاّت والمسارح وناطحات السّحاب البلورية، الجميلة. كما شاهدت كاتدرائية الثالوث المقدّس ومجموعة من المؤمنين الذين في طريقهم إليها. أو على عتبة بابها الفاره، الشّاهق، الجميل. أعجبها طابعها المعماري المميّز.

بعد أكثر من ساعة وجدت نفسها في شارع نيويورك. هو الشّارع الأكثر تسوّقا في العالم. أمّا ما يعرض فهو الأغلى في العالم أيضا ولا يشتري منه إلاّ الأثرياء ورجال الأعمال والسيّاح المرفّهون.

لاحظت أنّ إجراءات الحجر الصحّي قد خفّت تماما رغم الحديث عن متحوّر دلتا الجديد « أي واي. ٢. ٤». أو ما يعرف بدلتا بلس والذي صنّفته وكالة الأمن الصحّي البريطاني بشديد العدوى وشديد الانتشار. لذلك هي تظنّ أنّ وباء كورونا لن يغادر هذه السّنة أو السّنة القادمة على الأقل. إن واصل البشر استهتارهم بالبروتوكولات الصحّية. اعتبرت هذا التّراخي إنذارا بحلول كارثة إنسانية على الكوكب الأخضر الذي نسي أن يكون أخضرا من التلوّث والإهدار المقيت والاستغلال الفاحش لغاباته.

وهي تخرج من شارع نيويورك، نظرت إلى الأفق من بلور نافذة السيّارة. كانت السّحب الصّغيرة تعكّر صفو السّماء. خافت أن تمطر مرة أخرى . هاتفت ياسر ومحمود. طلبت منهما إمكانية توفير غرفة لها. لأنّها ستبيت عندهما ليلتها بعد أن تركت شقّتها مؤقّتا هربا من الرّجل الكركدن.

بعد المغرب بقليل كانت تمسك مقبض الباب. صدرها يعلو ويهبط بسبب الانفعال. مادت الأرض تحت رجليها. انتحت جانبا تبحث عن سند لها في الجدار. انتظرت ثوان اعتبرتها الأطول إطلاقا. كان يومها مثيرا وسيّئا للغاية. مرّت بفترة انهيار وإحباط شديدين. ضغطت على زرّ المنبّه. وانتظرت برهة لتسمع صوت زوج من النعال المنزلي قبل أن يفتح ياسر الباب بهيئته المبهرة وعينيه تشعّان سعادة . جذبها من يدها، شدّها إليه بعد أن أغلق الباب وراءها. شدّها من خصرها. شعره مسرحا بعنايةولحية حليقة. يرتدي بذله رسمية من القماش الكشمير الأزرق الغامق. بدا لها وسيما أكثر من ذي قبل. بوله أحاطت ذراعاها بعنقه. ثمّ انزلقتا إلى كتفيه وراحتا تضغطان على ظهره. كانت تبحث عن حماية من غائلة اسمها الرّجل الكركدن. كانت تلتصق بجسده وتسند رأسها إلى كتفه وهي ترتجف وترتعش كريشة في مهبّ الرّيح. بعد أن قبّلها بشغف في كلّ جزئية

مـن وجههـا. أبعدهـا قليـلا عنـه. شـدّ وجههـا بـين يديـه وهـو ينظـر في عينيهـا الواسـعتين الجميلتـين الزائغتـين. أطـال النّظـر إليهـا صمـت قليـلا ثـمّ قـال:

- أنت لست على ما يرام اليوم؟.

مرتعدة من قمّة رأسها حتّى أخمصي قدميها وبصوت مرتجف:

-عليه اللّعنة... كنت أحسّ أنّه يخفي شيئا رهيبا.

أصابعها ترتعش وهي تفتح حقيبتها وتخرج الدّمية:

-أنظـر هـذه... تلـك العرائـس كلّهـا مصنوعـة مـن العظـام البشريّـة. كنـت بالمخـبر وقمـت بالتّحاليـل لهـذه الدّميـة. حمضهـا النـوويّ بـشريّ... الكريـه... مجـرم... كيـف فعلهـا؟.

كان مأخـوذا تمامـا ومصدومـا بعينـين مفتوحتـين عـن آخرهمـا ردّد كلمـة مـن جملتهـا سـاخطا:

-عليـه اللّعنـة... ليـس بغريـب أن تكـون العظـام لجثـث أشـخاص مـن العـراق... قلـت لي آخـر مـرّة أنّـه كان مجنّـدا بالعـراق.

جثـا عـلى ركبـة واحـدة أمامهـا. جـذب رأسـها إليـه. أسـندته عـلى كتفـه موليـة وجههـا إلى صـدره... صـارت تنتحـب متمتمـة:

-هـذا ليـس عـدلا... ليـس عـدلا... كيـف سـوّلت لـه نفسـه أن يفعـل هـذا؟.

مواسيا مصعوقا:

-انسي حبيبتي... انسي ما حصل قد حصل.

منتحبة وأمواج الحيرة تتخطّفها:

-ثمّة أمور لا يمكن للإنسان أن يشفى منها طيلة حياته.

الليـل يزحـف حثيثـا مـن النّوافـذ. دخـل محمـود الـذي كان بالمطبـخ وهـو يسـحب نفثـه طويلـة مـن سـيجارته:

أهـلا بـك سـولافة نـوّر بيتـي بـك. غصبـا عنـي اسـتمعت لمـا دار بينكـما مـن حديـث. فقـد كان صوتكـما عاليـا مـن الصّدمـة وعرفـت القصّـة كلّهـا... حقيقـة إنّـه لخنزيـر. هـذا بعـض مـا خفـي مـن الحـروب المجانيـة التـي يعيشـها أهالينـا في العـالم العـربيّ.

ممتقعة اللّون، مرتعدة، اعتذرت سولافة:

-أنـا آسـفة لم أسـتطع أبـدا أن أكـون هادئـة أو أمسـك زمـام نفـسي. الصّدمـة أكـبر مـن درجـة احتمالي. مشـاعر الفـزع والرّعـب سـيطرت علي.

بصوت متحشرج ينضح بالغضب والنّفور أضافت:

-دمى بشرية تصوّر. أقصد مصنوعة من عظام بشرية. من جثث عراقيين. يا الله ألهمني صبرا على هذه الأهوال التي عرفت .

حدّق ثلاثتهم في وجوه بعضهم بعضا ونطقوا بالجملة نفسها التي فكروا بها في نفس الثّانية:

-والحل؟.

وجوههم مستعمرة حيرة طبع الوجوم عليها، أفواههم فاغرة. كان الإجهاد واضحا على سحنة سولافة والدّموع قد شقّت أثلاما على خدّيها. بدا عليها التعب والجوع والإنهاك. انتبه محمود لذلك فتركها لدقيقتين ليعود وبين يديه طبقا. عليه كوبا وكأس ماء وضعه بين راحتي سولافة:

-إنّه حليب بالشوكولاتة سيفيدك في تحسين مزاجك. هيّا اشربيه الآن.

لم يكن أمام سولافة مجال لرفض كرم مضيفها. اعتدلت في جلستها مرّرت يدها لترجع إلى خلف خصلة من قصّتها داعبت أنفها وشفتيها متشرّبة بعض ملح دموعها. سقط قرط من أذنها اليسرى. التقطه

ياسر وبرقة أعاده إلى موضعه ممرّرا بعد ذلك يده على خدّها وعنقها في حنان. ثمّ سحب يده وربّت على كتفها مشجّعا إيّاها:

-هيّا سولافة... محمود على حقّ... اشربيه... الشوكولاتة تحسّن المزاج.

ثم تركها وانهمك في وضع بعض أعواد حطب شجر الأوكاليبتوس في المدفأة.

انصاعت سولافة لأوامرهما. رشفت آخر قطرة من فنجانها. أمّا ياسر فقد ناولها حبّة برازولام للتّخفيف من حدّة الاكتئاب قائلا بحب:

-أنت امرأة شجاعة جدّا. ما مررت به اليوم ليس بالهيّن. لقد أبليت بلاء حسنا. كان قدرك ومصيرك. كان الله في عونك.

رمقته سولافة في ذهول وابتلعت الحبّة التي بين الإبهام والسبّابة فورا مستعينة بثلاث رشفات ماء من الكأس التي أتى بها محمود على الطّبق.

كان الشّيء الوحيد الذي يشغل ياسر هو كيف يحمي سولافة من هذا القاتل، المجرم القدر ؟. بعد أن أصبح يحوم حولها

وقد ورّطت نفسها في كشف حقيقته. الأمر لا يمكن أن ينتهي عند هذا الحدّ.

مجدّدا أمسكت سولافة بالكأس. شربت عدّة رشفات من الماء. تحاملت على نفسها باذلة مجهودا كبيرا لتبدو متماسكة رغم وهنها وضعفها. كانت الأسئلة تتصارع في رأسها. ما علمته صارت أكثر وطأ على قلبها. صارت أكثر هوسا بمعرفة المزيد عن أمر الدّمى البشريّة وعن المجرم الكركدن. مشت بخطوات متثاقلة إلى الحمّام الذي أرشدها إليه ياسر. فتحت صنبور ماء الحوض المعدّ لغسل الأطراف. بلّلت جبهتها ووجنتيها ورقبتها من الخلف بماء بارد. دون أن تلمس المنشفة خرجت من الحمام ثم رجعت بحقيبتها. أخرجت روب الحمام من القماش المخملي الثقيل ومنشفة الرأس وزوج نعال منزلي. تجرّدت من ملابس العمل. وغاصت بجسدها العاجيّ، البضّ في مغطس الماء وفقاقيع الصّابون. أغمضت عينيها ّ ببطء. كانت علامات الألم واضحة على ملامحها. حاولت الانفلات من أوجاعها. كانت بحاجة إلى الاختلاء بنفسها. لتفكّر في ما مضى وفي ما هو آت.

- عندما خرجت من الحمّام، كان اللّيل قد أسدل حجبه. توجّهت إلى غرفة ياسر بعد أن انتقل هو ليشارك محمود غرفته. تنشّفت ورطّبت جسدها بمرهم أشعرها بالانتعاش. لبست منامة

حريريــة ســوداء متمثّلــة في سروال فضفــاض وقميــص مســتور بكمّــين طويلــين. سرّحــت شــعرها بعــد أن جفّفتــه بالمجفّــف الصّغــير خفيــف الحمــل، الــذي يرافقهــا متــى باتــت خــارج شــقتها ســواء عنــد صديقاتهــا أو في رحلاتهــا. وضعــت كحــلا ولمســة ماكيــاج خفيفــة. بــدت مبهــرة الجــمال وهــي تطــلّ مــن الــرّواق عــلى بــاب غرفــة الجلــوس. أبــن جهّــز يــاسر ومحمــود طاولــة العشــاء في زاويــة الغرفــة. دعاهــا معــا إلى الانضــمام إليهــما. تقدّمــت في هــدوء وهــي تجيــل نظرهــا في المــكان. الصّالــون الجلــديّ البنّــي، اللّوحــات المنســوجة عــلى الجــدران، المناضــد والطّاولات، الســجاد البنــيّ أيضــا. كلّ مــا في الغرفــة عــلى الطّــراز الأوروبيّ، ينــمّ عــن ذوق رفيــع ومتفــرّد. أظهــرت الانــشراح عــلى أســاريرها إكرامــا لمضيفيهــا. كان العشــاء فاخــرا. مســتوحى مــن المطبــخ الخليجــي. مشــاوي وكبســة وتبّولــة وكبّــة لبنيــة ودولمــة للتّحليــة. جلســت إلى جانــب يــاسر بعــد أن ســحب لهــا الكــرسيّ مفســحا لهــا المجــال لتجلــس في حركــة الجنتلــمان.

بعــد العشــاء جلســت ســولافة ومحمــود إلى المنضــدة الصّغــيرة الرّماديــة المســتديرة في الشرفــة. راحــت ســولافة ترتّــب الفناجــين الصّغــيرة الكحليــة ذات الزخــارف والنّقــوش الصّينيــة باللّــون البنــيّ عــلى الطّبــق. ســكبت الشّــاي عــلى ورق النّعنــاع في فنــاء الفناجــين بتلــذّذ. انضــم إليهــما يــاسر وهــو ينشّــف يديــه بمنديــل ورقــيّ بعــد أن حسّــن مــن حالــه في الحــمّام.

رمى ببقايا المنديل في سلّة المهملات في زاوية الشّرفة. شرب شايه دون سكّر برشفات بطيئة. نظر في الصّحيفة التي أمامه مليّا ثم حوّل نظره إلى سولافة مستطردا وكان الحديث في الموضوع لم يقطعه العشاء ثم جلسة الشاي:

-يبدو الأمر معقّدا ولكنّه في الحقيقة بسيط جدّا.

محمود في استنكار:

ما هو الشيء البسيط جدّا... آه تقصد... الرّجل الكركدن والدّمى البشريّة وأمر سولافة.

دون أن تنبس سولافة ببنت شفة مكتفية بتحويل نظرها بينهما أجاب ياسر:

-غدا نذهب ثلاثتنا ونقدّم الدّمية مع التّقرير الطبّي الذي مع سولافة إلى المحقّق العام. ونعرض الأمر على دائرة الجنايات. لينال الرّجل جزاءه... فأمريكا بلد يتبجّح بتطبيق القانون وحقوق الإنسان. وسنعرف المزيد عن قصّة هذا الرّجل المقيت.

وافقه محمود:

-الدراغولا... هذا ما يصحّ عليه... نعم يجب أن نفعل.

ثمّ التفت إلى سولافة:

-أراك وكأنّ على رأسك الطّير... ما الأمر؟.

كانت تتصبّب عرقا من فرقها إلى قدميها. وجهها شحب مجددا. ثم بنبرة الحزن الأسيف:

- نعم... نعم... أشاطركما... يجب أن ينال جزاءه..

قال ياسر:

-حسنا تفعلين.

ثم رمقها بنظرة لم ترها من قبل في عينيه وبلهجة معاتب:

-التصرف الذي قمت به ليس صائبا.

اتّسعت حدقتا عيني سولافة السوداوين الحوراوين في ذهول وقد قرأ تساؤلها فأضاف:

-كيف تقرّرين وحدك وتذهبين إلى شقّته دون خوف؟. ألم يساورك إحساس أن يكون مصيرك مثل هذه؟. (وهو يمسك بالدّمية).

لم تخبريني ولم تعلميني بالأمر لأكون على بيّنة وأتدخّل إن أحاط بك شرا لا قدر الله.

مهما كانت التّجارب الأليمة التي مررت بها والأهوال التي عرفت لا تزالين شابّة ويافعة. هذا قد يجعلك لقمة سائغة لهذا المتوحّش الذي دخلت شقّته دون تفكير وبتهوّر.

كانت هي أيضا مدركة لهذه الحقيقة. تنهّدت في أسى وردت بثقة:

- تملّكني الفزع أقرّ بذلك. لكن المسألة مسألة ضمير ومسألة مبدأ وإنسانية. كيف أشكّ في وقوع أمر فظيع ورهيب وشائن في حقّ الإنسانية وأبناء بلدي بالذّات وأنا التي تجرعت أصناف الظلم ثمّ أغض الطّرف.

وهي تنظر إلى طائر بوم فوق سلك كهربائيّ ممتدّ بين الأعمدة في الضفّة المقابلة من الشّارع سألته دون أن تلتفت إليه:

-هب نفسك في مكاني واكتشفت ما اكتشف وهالك ما هالك من الأمر هل كنت ستسكت وتغضّ الطّرف أم كنت ستتصرّف مثلما تصرّفت؟.

وهو يتجاهل الردّ على سؤالها المحاصر:

-طيّب... طيّب. أمامك أمر واحد تقومين به كي تنجي... بالأحرى مسؤوليتنا معك... كما قال محمود غدا صباحا إلى مكتب

المحقّق العام.

تدفّق اللّيل كشلاّل. النّوافذ كعيون القطط المتشرّدة والشّوارع أقباس نور هاربة. تعلّل محمود بمكالمة هاتفية أتته بغتة وذهب إلى فراشه ليفسح لهما مجال الانفراد والحديث معا دون تكلّف.

كلاهما كان خائفا ممّا يمكن أن يحدث لو تتوفّر فرصة الهرب والاختباء للمذنب. ستبقى حياتها مهدّدة من مجرم تجرّد من إنسانيته. كان ياسر يشعل سيجارة إثر أخرى.

اقتربت منه سولافة مدخلة يدها تحت إبطه لتمدها في استقبال اليد الأخرى التي عكفتها لتشبك أصابعها في الأولى. همست بحب ورقّة:

-آه ياسر... أتراك تسمعني حين كنت أنطق اسمك وأنا بعيدة عنك؟. أترك كنت تحسّ بألمي الذي عانيت حين كنت أتأوّه؟. أضلاعي تكتوي بالذّكريات المؤلمة ومع ذلك أتطلّع للغد الذي أنت فيه إن شاء الله بأمل وفرح وسعادة أراها ليست بعيدة عنّا. أراها ترفرف بجناحيها في طريقها إلينا. تمرّ الأيّام جامدة مؤلمة دونك.

قهقه ياسر:

-هـاي هـاي... توقّفـي... كثـير عـلي... أراك تقولـين كلامـا شـبيها بذلـك الـذي يقولونه الشّـعراء.

ضحكت ملء قلبها ثمّ وبوجوم مفاجئ:

-في رمـاد عينـي نـما الفطـر. تـاه قطـاري في منعطـف السّـنين. أرصفـة العمـر تهـترئ كلّ يـوم. شـخت قبـل ذلـك بكثـير... أتظـنّ أنّ قلبـي لا يـزال غضّـا طريّـا لأقـول كلامـا رقيقـا كالشّـعراء؟. طوّقهـا بنظراتـه قبـل أن يطـوّق خصرهـا بيديـه ويجذبهـا إليـه ويحنـو عليهـا في قبلـة طويلـة أنسـتهما العـالم ومـا فيـه.

بصـوت أكثـر نعومـة بعـد أن تحـررت شـفتاها مـن شـفتيه مـن قبلتهـما المحمومـة قالـت بنعومـة:

-أريد أن أقول شيئا.

متأمّلا عنقها الطّويل وذقنها الدّقيقة بانبهار:

-قولي ما شئت كلّي آذان صاغية إليك.

-عاصفـة حـبّ تهـبّ بداخـلي ومـن الأفضـل أن أدخـل لغرفتـي... اللّيـل أشرف عـلى الانتهـاء والفجـر يحـزم حقائبـه ليشرّفنـا بطلعتـه الفضّيـة الجميلـة... تصبـح عـلى خـير.

سمع خطى في الممشى فعرف أنّ محمود كان بالمطبخ بصدد أخذ كأس ماء. فهو يفعلها كثيرا في اللّيل. عادة لم يقطعها رغم نصيحة ياسر له بأن يأخذ قارورة ماء ويضعها على المنضدة إلى جانب فراشه كي لا يضطرّ إلى النّهوض من فراشه والذّهاب إلى المطبخ. لكن محمود لا يبدّل عوائده سريعا.

ابتسم ياسر لسولافة واحتضنها مجددا وتركها تفلت منه وتواليه بظهرها لتدلف داخل غرفة. لم تكن الغرفة كبيرة جدّا ولكنّها كانت فخمة المفارش في حين بقي هو في الشّرفة مستندا على حوافّها. منحنيا انحناءة خفيفة. مدّ رجله اليسرى. أسندها بين أعمدة حديد الشّرفة المشبّك. فرك عينيه بظاهر يده. مسح قطرات العرق المتجمّعة على جبهته. أطال الانحناءة شاردا ويده على خدّه إلى حدود الفجر. رجع إلى المنضدة وأتمّ قراءة الصحيفة المهملة . بعدها ذهب إلى المطبخ. لم يعثر على شيء يصلح وجبة صباحية. جهّز كوب حليب بالشوكولاتة التي يعشق كما درج عليه كلّ صباح.

الشكولاتة من الأشياء التي يشترك مع سولافة في الولع بها. رحّب بالزّائر البهيّ القادم من الأفق البعيد وبنوره وجلبته. تأمّل حركة المآرة المضبوطة على إيقاع أزيز السيّارات وزقزقة العصافير المتراقصة

بين النّوافذ والشّرفات وأشجار الشّوارع والأعمدة الكهربائية.

على بعد خطوات قليلة منه تنام سولافة حبيبته على سريره وتستخدم مخدّته ومفارشه وأغطيته وتلمس بيديها الحانيتين وتستخدم بعض أغراضه. لم تكن الغرفة كبيرة جدّا ولكنّها كانت فخمة المفارش. رمت رأسها على المخدّة. استجدت النّوم لكن عنوة جافاها. قضيت ليلة مضطربة، غرقت في ظنونها ووساوسها. رأسها مزدحم بالاستفهام. الماضي يحرق روحها. كانت غارقة في لجّة أفكارها. تملّكها إحساس بالخواء. ما مرّت به كان فوق طاقتها

واحتمالها. شحنة التّعب تجذبها إلى قاع هوّة سحيقة. لا أحد يعرف كم يكون مرهقا أن يكبّل الفرد بالتّعب فيطلب النّوم كمنقذ ولا يجده.

عندما سمعت حركة خافتة تكاد تكون مكتومة بالمطبخ. نهضت من السّرير. بشكل متأنّ فتحت باب الغرفة. دالفة بعد ثلاث خطوات إلى الحمّام. اغتسلت وتزيّنت ومشّطت شعرها. عادت إلى غرفتها مجدّدا ولبست سروالا أسود وقميصا برتقاليا أظهر شباب بشرتها. ثم دلفت خارجة إلى الممرّ مجددا، حاملة حقيبة يدها. التحقت بياسر في الشّرفة قائلة :

-أراك لم تغادر مكانك منذ البارحة؟. ألم تنم؟. أشعر بالذّنب لأنّي أخذت غرفتك... ربّما لم تجد راحتك في النّوم بغرفة محمود.

زمّ شفتيه، حرّكهما يمنة ويسرة. نظر إليها بتمعّن. رفع عينيه إلى السّماء التي تلبّدت بالغيوم واكفهرت. قال:

-أسرعي في ارتداء معطفا. اليوم سيكون ماطرا ولا أستبعد نزول الثّلج وهذه الثياب خفيفة. سنذهب من هنا رأسا إلى مكتب المحقّق العام... أين الدّمية الملعونة؟... هل هي معك؟.

همهمت في انصياع:

- هيّا بنا.

متداركا:

- أفطري أولا.

معترضة:

- بعد أن نخرج من مكتب المحقّق العام سأتناول أيّ شيء بإحدى الكافيتريات أو المطاعم.

بحزم:

-هيا سولافة إذا قبل أن تزدحم الشّوارع وتصبح الحركة صعبة... آه محمود هاتفته صديقته الفينيزويلية. كانت قلقة. خرج منذ الصّباح الباكر. هي فتاة متيّمة به وهو لم يصرّح لي بحبّه لها. لكن ألاحظ أنّه متيّم بها وقد أدركت ذلك أكثر هذا الفجر. فقد كان القلق بارزا في علامات محيّاه. رمقها من أعلي إلى أسفل بنظرة مشفقة. شبك أصابعه بأصابعها ليسحبها من يدها. خرجا من باب الشّرفة ثم إلى الغرفة حيث تناول معطفها المعلّق بالمشبك فوق معطفه وضعه على كتفيها. ثمّ و بحركة سريعة أخذ معطفه. طواه طوليا فوق يده اليمنى. طاويا إيّاها إلى صدره. هما يتجاوزان عتبة الباب بقليل صفق الباب وراءهما بقوّة في حركة ترجمت غضبه وحدّه حنقه وقلقه الواضح.

نزلا بالمصعد. ليجدا نفسيهما بالباب الخارجيّ للعمارة. حيّت بخفر حارس العمارة الذي رمقها من تحت نظّارته بخبث واشتهاء. ظنا إيّاها واحدة من بنات اللّيل اللاّتي يبعن أجسادهن ببعض الدولارات وكأس ويسكي مع عشاء فاخر بعض الشيء. فهم ياسر ما وراء نظرته تلك وقد لمح نظرته المهينة تلك لحبيبة قلبه قال:

-عم جورج هذه قريبتي... إنّها خطيبتي... سنتزوّج قريبا.

ضحك الرّجل المسنّ ضحكة أكثر صفاء:

أووه... أهي عراقية إذا؟.

ردّ على الفور:

– من نفس مدينتي... من بعشيقة. حبّ حياتي. جئت أمريكا بحثا عنها. بعد أن وصلتني أخبار من أحد أقاربها من بعيد أنها حيّة ترزق وتعيش في نيويورك، كما أخبره أحد أبناء البلدة الذي عاد إلى العراق في زيارة لأهله إثر خروج المحتلّ الأمريكي.

شيء ما يتحرّك ويتململ في حقيبة يدها يدغدغ صدرها. تعاد الكرة مرّة... اثنتين... ثلاث. تزيح الحقيبة المشدودة إلى صدرها. تفتح السحاب. تدخل يدها وتسحب الهاتف السامسونغ لترى المتّصل. ترمي الهاتف من يدها في حقيبتها في ذعر.

يسألها ياسر بانزعاج:

–من... ؟. لا تقولي بأنّه هو؟.

مرتعشة تحرّك رأسها علامة الإيجاب. يفتكّ الحقيبة من يدها. كان سحابها لا يزال مفتوحا. يأخذ الهاتف الذي يرنّ ويرنّ بلا توقّف... يضغط على الزرّ الأخضر:

–آلو... آلو.. آلو... الهاتف لا يجيب... تبّا إنّه أوقح ممّا

تصـورت... ذلـك النّجـس.

يرمـي يـاسر الهاتـف في الحقيبـة بعنـف. يغلـق السّـحاب ويدخـل يـده الحاملـة للحقيبـة تحـت إبطهـا ويجذهـا حيـث تربـض السـيّارة. يرمـي بمعطفـه وحقيبتهـا في المقعـد الخلفـي ويـدور خلـف السـيّارة ليأخـذ مكانـه. في حـين سـولافة استنشـقت الهـواء مـلء رئتيهـا وأطلقتـه برضـا. خللـت شـعرها بأصابعهـا. سـوّت خصـلات قصّتهـا. رمـت بنفسـها دفعـة واحـدة عـلى المقعـد إلى جانبـه بعـد أن رمـت بمعطفهـا بالمقعـد الخلفـي. شـغّل يـاسر الراديـو عـلى محطّـة مختصّـة في إذاعـة الموسـيقى الكلاسـيكية. دخلـت في حالـة صمـت مطبـق، راحـت تسـتمع وهي مغمضـة العينـين، تفكـر في مـا مـضى و في مـا هـو آت. كان يـاسر مـن حـين لآخـر يلتفـت إليهـا، يتفرّسـها، عينـاه مهووسـتان بتفاصيلهـا. يعـرف أنّهـا لا تقـارن بـأيّ امـرأة ولا تشـبه أيّ واحـدة. احتلّـت كلّ جـدران قلبـه وكلّ تجاويفـه. لم تـدع مسـاحة لغيرهـا مـن النّسـاء. إذا أعطـت فاضـت. نسـاء الدّنيـا فيهـا اجتمعـن. أكثـر نعومـة مـن خيـط حريـر في رقتهـا.

أدار المحـرّك فتململـت السـيّارة بلطـف وبـطء ومـا لبثـت أن أصبحـت حركتهـا أكثـر سرعـة وهمـا يخرجـان مـن بـاب الحديقـة. راحـت تلتهـم الطريـق بتوحّـش ونهـم كبيريـن. غـاب يـاسر وسـولافة في ازدحـام...

إنّها نيويورك صرّة العالم... هما سعفتان من القشّ تطايرهما الرّيح الهوجاء.

إنّه يومها العاشر في ضيافة ياسر ومحمود. لا تداوم بالعمل بعد أن أخذت إجازة متعلّلة بالإرهاق والتّعب. على غير عادتها أفاقت خلية البال. انحنت عبر النّافذة لترى إذا ما كان الطّقس على ما يرام. كان المطر قد أصبح غزيرا وتخالطه ندف. الطّقس ضبابيّ وبارد. بشرتها الحليبية فاتنة وجذابة مثيرة. سرى في نفسها ارتياح غريب. تسارعت دقّات قلبها في إثارة. بعد ساعتين ستقلع طائرتها وياسر إلى إسبانيا. كان من المفروض أن يشاركهما محمود الرّحلة كما كان الاتفاق لكنه في آخر لحظة اعتذر. روزاليا حبيبته مصابة بالمتحوّرة الهندية... حالتها صعبة. الملايين قضوا حول العالم بالكوفيد اللّعين. خوفا عليها وحرصا على شفائها لم يفضّل أن ترقد بالمستشفى وتتعرّض للإهمال. بل أصرّ على أن يعتني بها بنفسه. تشوّق إلى السّفر برفقة روزاليا. لحضور معرض ابن بلده الحلبيّ عبد القادر خليل خاصّة. وأنّ الفنون الجميلة بكلّ أصنافها تفتنه ويسعده ارتياد المعارض والأروقة المقامة للغرض. دخل ياسر وقد ظهر الانشراح على أساريره. جذب كرسيّه في هدوء. قرّبه من كرسيّها حتى تلاصقت الدّعامات الجانبية. جلس في رصانة إلى جانبها. تناول الصحيفة التي بين يديها بلطف

رماها جانبا، جالبا انتباهها إلى أمر مهمّ. تناول آلة التحكّم وأضاء التّلفاز. وضعت ساقا على ساق. رشفت جرعة قهوة من فنجان أمامها. ركّزت نظرها على الشّاشة الصّغيرة المقابلة في فضول هادئ. انحبست أنفاسها فجأة. شحب لونها. أدرك ياسر ما ألمّ بها. سارع إلى إحاطتها بذراعيه. انكمشت فوق الكرسيّ، تكوّرت حول نفسها كقطّة أخذ منها البرد. ثم صرخت:

-هو... أنّه هو... يا ربّ... رجل البلدوغ... ذلك الكركدن الكريه. أنظر ياسر... المحطّات الإعلامية والمصورون حوله. لا يزال صامتا وهو يقف بعنجهيته المعتادة. رغم يديه المقيدتين ورغم احتجازه من قبل رجال الأمن. أشعر بتوتّر شديد.

نهض من على مقعده ليجلس على حافّة الأريكة إلى جانبها. نفخ في خصلة شعر تموّجت فوق جبهتها وعينيها، أبعدها عن عينيها. أمسك بيديها العاجيتين وغمغم:

-سيتكلم... انتظري قليلا فحسب. ليس أمامه خيار آخر .

- إنّها فظاعة.

يمضي الوقت ببطء بانتظار أن يتكلم رجل البلدوغ الذي شغل

بـزمّ شـفتيه بـكلّ الاتجاهـات ونظراتـه شـاخصة في عدسـة الكامـيرا. دون أن يبـدو عليـه الشّـعور بتأنيـب ضمـير.

قال محمود والحنق يشدّ عضلاته وأعصابه ويزيد من حنقه:

- مافيا الأعضاء البشريّة.

يكتنـف سـولافة جـوّ خانـق كـما لـو أنهـا تلقّـت غـرزة خنجـر في القلـب. تتحـرّك إلى شـبابيك الغرفـة. تفتحهـا عـلى مصاريعهـا. تعـود ثانيـة للجلـوس بـين ذراعـي يـاسر قائلـة:

- يهـدر المزيـد مـن الوقـت. مـن حـق أهـل الضّحايـا أن يعرفـوا. مـن حـقّ البشريّـة أن تعـرف فظاعـة الحـروب.

-الشّـعب الأمريكـيّ وقـد عاشرتـه لهـذه المـدّة القصـيرة لا يبـدو شريرا. المواطنـون هنـا عكسـه تمامـا إنهـم كأغلبيـة متسـامحين ومحبّين للسّـلام ككل إنسـان طبيعـي في هـذا العالم.

همهمت:

-صحيـح لا دخـل للمواطـن الأمريكـيّ بمخطّطـات السّياسـة والحـروب التـي تشـنّها الحكومـات عـلى العـالم مـن أجـل سـيادة القـرن والعـالم.

استدرك ياسر فجأة:

- أليس هذ مواطنا أمريكيّا؟ ماذا تسمينه؟.

-هـذا... شـوّهت روحـه الحـروب وشـوّه ضمـيره الظّلـم وشـوّهت إنسـانيته الفظاعـات التـي ارتكبهـا في الميـدان اللامتكافـئ بـين الغـازي والـذي كان آمنـا في عقـر داره.

أدرك ما ألمّ بها.. فهي ترتعش كفرخة:

-لا عليـك سـتكون الأمـور عـلى مـا يـرام. قلبـك الشّـجري يمـدّ أغصانـه لحمايـة مـن حولـك دائـما، كـم أنـت رائعـة.

-عندمـا رأيتـه أوّل مـرّة أدركـت أنّـه مقـرف وقـذر. كانـت الشّـكوك تـراودني وارتبـت في أمـره. لكـن أبـدا لا شيء مـن هـذا كان يطـرق خيـالي. مازلـت لا أسـتوعب كيـف تمكّنـت مـن ذلـك؟.

الرّجـل البلـدوغ يسـتعدّ للحديـث الآن. رمـق عدسـة الكاميـرا بنظـرة حـادّة. شـعرت بأنّهـا مقصـودة وموجّهـة إليهـا فأخافتهـا. شـعرها الكسـتانيّ المتمـوّج عـلى كتفهـا المكشـوف، يلامـس وجـه وكتفـي يـاسر الـذي أرخـى ظهـره عـلى الكـرسيّ لشـعوره بالـدّفء قائـلا:

- كـم هـو مقـرف... المجـرم يلعـب بأعصابنـا... بأعصـاب كلّ

الإنسانية في هذا العالم.

تكلّم أخيرا:

-قبل أن أقول شيئا أودّ أن أسرّ بشيء إلى جارتي العراقية وسيعة العينين سولافة. لم يكن لدي شيء لأخسره. فوّت أمرا ما في غاية الرّوعة وهو أنّني لم أحوّلك إلى مجموعة من الدّمى الجميلة تضاف إلى مجموعتي.

لم يعد باستطاعة سولافة التحرّك إطلاق. اعترتها برودة شديدة. فغرت فاها. عضلات خديها ترفّ بعصبية. كانت الرّعشة في كلّ جسدها.

أحسّ ياسر براحتيها مبلّلتين:

-أنصتي الآن.

تكلّم أخيرا دون تأثّر:

-نعم كنت مجنّدا في العراق. في تلك الحرب الظّالمة أقولها دون ندم وأنا أقرّ بذلك. نعم أيضا تلك الدّمى والعرائس صنعتها من عظام أجمل فتيات العراق. أحببتها... كانت غزالا ممشوق القوام... إنّها جيلان بهنسي. تعلّقت بها وهمت إلى درجة أوصلتني الجنون. أخبرتها

عـن مشـاعري وتقدمـت لخطبتهـا. فرفضتنـي كـما رفضنـي أهلهـا. عقدت قرانهـا عـلى ابـن عمّهـا ويـوم عرسـها ثـارت ثائـرتي... رميـت بيتهـم بصـاروخ فجرتهـم قتلتهـم جميعـا... أخـذت جثمانهـا وأذبتـه بمحلـول خـاصّ ثـم نحـتّ منهـا عرائـس أسـميتهن جوليـا وجـان وجانسـو وجيكـر وجينـدا.

إثـر تلـك الحادثـة قـررت أن أعمـد إلى اغتصـاب وقتـل كلّ فتـاة جميلـة أتمكّـن منهـا في العـراق... بالطّبـع أصنـع منهـا عرائـسي الجميلـة . سرّي الكبـير هنـا في نيويـورك. سرّي الـذي حوّلنـي إلى صانـع دمـى.

اغتصبـت وقتلـت الكثـيرات. أذكـر سـيماف، شـادن، ليلاف، هوشـيار، هوكـر، رينـاس، روجـدا وافيـين وأرانـا. عـشر فتيـات مـن أجمـل البنـات الأيزيديات.

كان حديثه مسهبا بالتّفاصيل ممّا أثار قرف سولافة وقامت تستفرغ.

لحق بها ياسر:

أرجـوك اهدئـي أنـت لم تعـرف الخـبر الآن. المفـروض لا يؤثّـر فيـك أكثـر... طائرتنـا بعـد قليـل... هيّـا اسـتعدي. سنسـافر إلى إسـبانيا.

احتجّت سولافة:

-لكن.

معاتبا:

-ما لكن هذه؟.

أخذت عهدا مع نفسي بأن أتسلّم تلك الدّمى وتلك النّشارة من العظام التي يخبّئها في حاوية وأدفنها في مقبرة المسلمين علّ أرواحها تحسّ ببعض السّلام.

أكّد لها:

- طبعا حبيبتي وسنضعها في أكفان ونصلّي عليها. لكن أتخالين أنّهم سيسلّموننا إيّاها الآن؟. الأمر سيأخذ وقتا. عندما نعود سنفعل.

لم يكن اللّيل قد هبط بعد حين استلقت بتعب على الأريكة المقابلة للممرّ... بينما راح زوجها ياسر ينتقل ببصره من فضائية إلى أخرى عبر شاشة تلفاز البلازما المعلّقة على الجدار المقابل... فجأة تسمّر مذعورا داعيا اللّطف الإلهي:

- يا رب... يا للكارثة... لطفك يا رب.

انتصبت سولافة مذعورة. هي التي ظنّت بأنّها لن تجزع إلى أيّ شيء يقع مهما كانت حدّته . لكثرة ما مرّت به من أهوال وآلام

وبعد أن شهدت حادثة اغتيال كامل أفراد عائلتها ومهما كانت درجة فظاعته. سألت ياسر بجزع كبير:

-قل ياسر ما الخطب... جمّدت دمي في عروقي؟.

-شاهين يا سولافة شاهين.

-من شاهين... هل هو ابن جارتنا نعمات؟.

-لا... ليس هو.

-تكلّم ماذا حصل لتخف بهذه الدّرجة؟.

-إعصار شاهين يضرب منذ البارحة.

-إعصار شاهين... أين هذا؟.

-أنا أعتبر الوطن العربّي جسدا. كلّ بلد عضو من هذا الجسد الذي إذا «اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى».

-أوقعت قلبي في قفصي الصّدري.

-إعصار شاهين يضرب سلطنة عمان وثمّة قتلى وهو لا يهدّد عمان فحسب بل عجمان وكلباء... هو من أعاصير شمال المحيط الهادي الذي يضرب بحر العرب. قادم من منطقة الضّغط المنخفض

فوق خليج البنغال. عبر بين ولايتي المصنعة والسويق. ثمّة أمطار غزيرة بمحافظتي شمال وجنوب الباطنة. المياه تغمر شوارع العاصمة مسقط. تضرّر حي الديس بمدينة المكلا كثيرا. علق مواطنون هناك والعمليات جارية لإنقاذهم. الكثير من المتساكنين أخلوا منازلهم وتوجّهوا إلى مراكز الإيواء... يا ربّي أحفظ أهالينا في عمان وجمهورية الإمارات العربية المتّحدة من هذا الهائج المائج.

-احفظهم يا ربّ... لسنا على الاستعداد لتقبّل مزيد المآسي في عالمنا العربيّ الذي لم تعد أخبار الحوائج والمآسي تبرحه.

-صدقت والله... معاناة تقريبا تكاد تكون بالجملة.

-لكن ما يطمئنني أنّ الإمارات العربيّة المتّحدة قد استعّدت لهذا الإعصار... عملت جدار صدّ من الصخور على الشواطئ بينها وبين عمان وعمان ستسيطر عليه بإذن الله.

-مع أنّ جبروت الأعاصير كبير إلاّ أن ربّ العباد دائما رؤوف رحيم والإمارات لديها من الاستعدادات اللّوجيستية ما يمكّنه من تجنّب أكثر ما يمكن من تهديدات الإعصار الشّرس.

-نعم صحيح هذا البلد العربيّ نجح في الكثير من التّحدّيات

وسيتغلّب على شاهين وأعتبره بلد المعجزات. بنية تحتية وحضارة عصرية لا تضاهى في سنوات وجيزة.

-الرائع والمدهش ما حقّقته المرأة الإماراتية من تقدّم ووعي. فقد عاضدت الرّجل في بناء الدّولة. تعرّفت إلى الكثيرات، منهنّ شاعرات وأديبات، ونساء صاحبات أعمال، ومتضلّعات في العلوم

والسياسة.

-نعم صحيح وبالنّسبة لشاهين سيمرّ بسلام بإذن الله.

-يا ربّ العباد. لطفا بإخوتنا وأبناء عمومتنا.

طوّقها بذراعيه معانقا إيّاها من الخلف. بسرعة وبرشاقة أدارها ليواجه وجهه وجهها. ارتسمت ابتسامة لطيفة، ساحرة على محيّاها، كان نظره مشتّتا بين تلّتي نهديها واكتناز شفتيها المغريتين. التحمت وتشابكت الضلوع. همهمت وعيناها مغمضتان:

-كيف أحبّك بهذا العنفوان يا زوجي العزيز؟.

وهو يشدّها إلى صدره أكثر ويشرب الشّهد من إناء شفتيها:

-يا سيّدة النساء... يا حبيبتي.. شكرا لمحمود الذي استعجل زواجنا و كان شاهدا عليه.

بتأوه:

-أنت الوحيد الذي تحوّل اليابس إلى أخضر.

ردّ:

-أنت فريدة وجميلة كغصن زيتون أخضر دائما.

وأنفاسها تتلاحق بسرعة:

-كنت خلال السّنوات الماضية... تلك السّنوات لا أريد أن أذكرها. أراك في أعين النّاس وملامحهم.

وهو يزيح خصلة من شعرها الأسود الفاحم عن وجهها:

-قلبي يقفز من صدري... أيّتها السّاحرة القادرة على قتلي وإحيائي... أنا مهووس بك. مهووس بكلّ تفاصيلك. نساء الدّنيا فيك اجتمعن.

تمتمت:

-حبيبي.

بكل سعادة:

-يا كلّ الحياة ويا كلّ الدّنيا... كم أنت فاتنة وجذّابة.

تسارعت دقّات قلبها في إثارة. همست في أذنه لا:

- أصدّق أنّنا تزوّجنا قبل ساعات بعد الكوابيس التي عشناها.

وهو يزمّ شفتيه في تحسّر:

انسي حبيبتي... أعلم أنّك أبليت بلاء حسنا، انسي ذلك الآن... ها نحن مع بعض. ها أنت لي وها أنا لك... انسي.

سولافة وقد غمرت اللّهفة ملامحها:

- الأصوات كلّها صمتت بداخلي إلاّ صوت الحبّ.

وهو يدسّ رأسه في نحرها:

-ساكنة قلبي... آه منك... آه من عطشي ومن غلياني... أحبّك كثيرا.

بصوت بالكاد يسمع:

-ياسر... لماذا أنت؟.

بدون تردّد أو تفكير:

-لأنّك أنت يا سولافتي... يا حلوتي... روحي تذوب في بساطتك، وعفويتك وهدوئك وثورتك. أنت العمر الذي لا معنى

لـه إلاّ في حضـورك. بعثريـني واجمعينـي كـما شـئت. سـأجعل أيّامنـا التـي تجـبر كـسر قلبينـا.

بجدية:

-طيفك معي ليلا نهارا.

ابتسـمت وأفرجـت عـن أسـنان ضاحـكات كالثّـبر الأبيـض اللاّمـع فقـال:

-الجميـل أنّـك صمـدت وقاومـت وقاتلـت... لكـن ابتسـمي... جمالـك لا يليـق بمحرابـه غـير الفـرح ولا شيء غـير الفـرح.

-ضحيّت قدر استطاعتي وبذلت حتّى ذبلت.

سأعوّضك عمّا فقدت.

جفلت من بين ذراعيه والدّموع تفرّ من عينيها بغزارة:

-لـن تسـتطيع أن تعوّضنـي ولـن أسـتطيع أن أعوّضك. هل سـتعوّضني عـن السّـجن في أبـو غريـب أم عـن هـربي وأسري مـن مـن طـرف داعـش وهـربي مجـدّدا إلى ماخـور الكهرمانـة؟. هـل سـتعوّضني عـن الاغتصـاب والمهانـة وإذلال أنوثتـي وإنسـانيتي وامتهـاني للبغـاء مجـبرة.

-على الأقلّ ستكون أيّامنا القادمة معا جميلة وهنيئة وفيها الكثير من الحبّ. سأحاول أن أنسيك ذلك الماضي التّعيس. أنا لايهمّني من أمر البكارة والعذرية غير نفسيتك التي اضطهدت وأنوثتك التي أستغلّت بطريقة مهينة.

لا تقل أن الأمر لا يقلقك؟.

-أيّ أمر؟.

-إنّك لم تجدني عذراء.

هل أنا متخلّف لأحسب عليك أخطاء غيرك؟. هل فرّطت بعذريتك بإرادتك؟. هل عشت متعة تلك العلاقات الجنسية المهينة وتلك الاغتصاب؟.

-لا... حتما لا... كنت أموت... كنت أموت كلّ يوم.

-إذا أنسي أنت أشرف من الشّرف بالنّسبة لي... أحبّك بما أنت عليه. أنت عذراء العذارى التي تتوضّأ من ماء عيني.

يليق بك أن تستثني عن باقي النّساء... لا تقارنين بأخرى ولا تشبهين أخرى ولكن نساء الدّنيا فيك اجتمعن. عزيزة نفس وجميلة الطّبع والرّوح. لا تستحقّين العناء ولا تستحّقين الحزن. عندك من

الحبّ ما يكفي الدّنيا كلّها.

سرى في نفسها ارتياح عميق وقد غمرت اللّهفة والشّوق ملامحها. سحبت اللّحاف إليها وغابا في غيبوبة حبّ غيّبتهما طويلا .

قرابة الفجر الطّائرة الآن في طريقها إلى إسبانيا... اليوم المتعب لسولافة جعلها تتهالك على الكرسيّ وتغطّ في نوم عميق. متوسّدة كتف ياسر الذي غطّاها بذراعيه وانحنى عليها كرضيعة.

لكن أنا راوية القصّة، كنت أتلصّص عليهما إلى أن غفوت بطبعي. مراقبة النّاس همّ كبير. مشقّة كبيرة. غفوت وفاتني ما تبقّى من الأحداث. لكن صوتا ألفته جدّا... صوت أحببت صاحبته. خاطبني:

-حمدا على سلامتك صديقتي.

صوتها بلّل قلبي بماء الرّاحة والسكينة فقلت:

-من؟. نصاف؟. هذه أنت ثانية حبيبتي؟.

-نعم أنا يا رفيقتي الغالية... جئت أهنئك لأنّك أكملت الرّواية ولم تترك القارئ في حيرة لمعرفة بقية القصّة. حمدا على سلامتك من الكورونا. خفت أن تلحقي بي. عندها لمن سآتي في الأحلام؟. من

ستروي لي أخبار البلاد والعباد؟. الموت انقطاع عن الدّنيا وأهلها يا صديقتي؟. فقط الأحلام يمكن أن تأتي بنا ويمكن أن تلاقينا. فنعرف منكم أخبار تلك الفانية... حفظك الله... الجائحة لم تنته بعد.

بابتسامة حزينة أجبتها:

-منظّمة الصحّة العالميّة تتحدّث عن وباء آخر أكثر فتكا وقتلا... قيل نصف البشريّة ستهلك بسببه.

بفزع ردّت نصاف:

وباء جديد... ؟. لقطة... يا لها من لقطة... هههههه. عالمكم أصبح مشوّشا... سأري الكاتب محسن وعالم السوسيولوجيا وناس ماذا يفعلان... إلى اللّقاء

إلى اللّقاء حبيبتي سعدت بلقائك.

أحسست برجّ كبير من كتفي وسمعت صوتا يلهج باسمي بفزع:

ابنتي... حبيبتي... انهضي... إنّك تحلمين... باسم الله الرّحمان الرّحيم... قومي يا ابنتي... العني الشّيطان... هذه الأحلام ستأخذك معها أحد الأيّام... نصاف لا تكف عن التردّد عليك في أحلامك... تريد صحبتك هناك أيضا؟ قولي لها شدّي أحجارك...

ألزميهـا... هيّـا قومـي. غـدا لديـك أمسـية شـعرية.

نهضـت وأنـا أحـاول أن أتذكّـر تفاصيـل مـا جـرى فلـم أفلـح... قـل أيّهـا المتلصّـص عـلى حـبر قلبـي هـل تعـرف أنـت التّفاصيـل؟.